ساطع الحصري

دار الكتب والوثائق القومية
مراقبة التزويد بوزارة الثقافة
رقم اليومية: ٢٠٠٢/٢٠٠٢م
الفن والرقم الخاص / ٧٧٢٠

دفاع عن العروبة

دار العلم للملايين
بيروت

obeikandl.com

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الاولى

بيروت ، شباط ١٩٥٦

obeikandl.com

مقدّمة

١

« ما اسعد الأمم التي حققت وحدتها القومية ، واستكملت شخصيتها السياسية ، فاستطاعت ان تجعل حدودهـــا الدولية منطبقة على حدودها القومية !

ذلك لأن مفهوم الوطن عند أمثال هذه الامم يكون واضح المعالم ومستقر الشكل : الامة تكوّن دولة مستقلة موحّدة ، فتتعين حدود الوطن عندها بحدود الدولة القائمة التي تجمع شمل الامة بأجمعها تحت راية واحدة .

ولذلك لا تكون الوطنية عند هذه الامم موضع خلاف ومثار جدل ، وجميع افراد الامة يفهمون الوطن على طراز واحد ، ولا يختلفون في تقدير واجباتهم الاساسية نحو هذا الوطن المشترك العام ....

ولكن ، ما أتعس الأمم التي ظلت بعيدة عن تحقيق وحدتها القومية واستكمال شخصيتها السياسية ، فلم تستطع ان تجعل حدودها الدولية منطبقة على حدودها القومية !

ان مفهوم الوطن عند هذه الامم لا يكون واضح المعالم ومستقر الشكل . لأن تعدد الدول المسيطرة على شؤون الامة يجعل مفهوم الوطن معقداً ومشوشاً في الاذهان .

ذلك لأن الوطنية عند تلك الامم تتصل بمفاهيم عديدة : فيكون هناك « الوطن الخاص » الذي يتحدد بحدود كل دولة من الدول القائمة ، و « الوطن العام » الذي يشمل جميع الاراضي التي تسكنها شعوب الامة على اختلاف دولها وأوضاعها السياسية .

« الوطن الفعلي » الذي تعترف به الدول .. و « الوطن المثالي » الذي تنشده نفوس المواطنين ، وتتوق الى رؤيته تحت راية مشتركة في المستقبل القريب أو البعيد ..

وبتعبير أقصر : يكون هناك « الوطن الراهن » و « الوطن المنشود » ، ... أو « الوطن الدولي » و « الوطن القومي » ..

ولا حاجة الى البيان : ان كل واحد من هذين المفهومين ، يحتم على المواطنين واجبات خاصة من نوع خاص ....

ولكن عقول جميع المواطنين لا تستطيع ان تؤلف بين مقتضيات هذين المفهومين تأليفاً منطقياً عملياً ....

ولهذه الاسباب كلها تكون الوطنية موضع خلاف ومثار جدل بين المواطنين .

فينقسم الناس الى فريقين ، ازاء قضايا الوطن الاساسية : فريق الاقليميين وفريق القوميين .

فريق الذين يقصرون انظارهم داخـــل حدود الدولة التي ينتسبون اليها ، من غير أن يفكروا بما وراءها ، ويعتبرون كل ما بقي خارج تلك الحدود أجنبياً . وفريق الذين لا يرضون بالانحباس داخل هذه الحدود ، بل يتطلعون الى الحدود القومية التي تمتد الى ما وراءها .

فريق الذين يكتفون بالوطن المعترف به دولياً ، وفريق الذين يرسلون أبصارهم الى ما وراء ذلك ، ويتوجهون بعقولهم وقلوبهم إلى الوطن المثالي ، الذي يجب أن يجمع مختلف شعوب الامة تحت راية واحدة ..

وفريق الاقليميين الذين ينكرون وحدة الامة ، ويقولون بتعددها تبعاً لتعدد دولها ؛ وفريق القوميين الذين يعتقدون بوحدة الامة على الرغم من تعدد الدول ...

ان اختلاف النظر بين هذين الفريقين يؤدي الى اختلاف النزعات بطبيعة الحال ، وهذا الاختلاف يكتسب شكلاً حاداً في بعض الاحيان :

يتهم الاقليميون معارضيهم بالتقصير في واجباتهم نحو الدولة القائمة ، في حين ان القوميين يتهمون هؤلاء بعدم ادراك واجباتهم نحو الامة .

يدعي الاقليميون بان القوميين يسيرون وراء الأوهام والخيالات ، في حين ان القوميين يقولون عن هؤلاء انهم لا

يدركون سمو معاني الامة والوطن ، فيتمسحون بأذيال الاحوال الحاضرة والاوضاع الراهنة .

ومن الطبيعي ان الدول الأجنبية التي تطمع في تلك البلاد ، تجد في هذه الاوضاع والاختلافات مجالاً واسعاً للقيام بالدسائس والدعايات التي تضمن لها مصالحها الخاصة .. وتعمل لاذكاء نيران الخلاف بتقوية الاقليمية بشتى الوسائل والأساليب ، لتحول دون اتحاد الأمة لتكوين دولة قوية .

هذا ، والنفعيون من أهل البلاد ايضاً ، لا يتأخرون عن استغلال هذه الاوضاع ؛ فيسعى قسم منهم لتقوية الاقليمية ، تارة للاحتفاظ بالمنافع التي اكتسبها ، وطوراً للحصول على منافع جديدة ، وتحقيق أطماع كبيرة .

ويتخذ قسم منهم النزعة القومية مطية للوصول الى أهداف شخصية ، ويسيء الى سمعة الفكرة السامية التي يستغلها بهذه الصورة لغاية نفعية .

ويظهر بين النفعيين فريق آخر ، يستفيد من هذه الأوضاع للتحلل من واجباته الوطنية والقومية ، ويزدري بالنزعات الوطنية والقومية على حد سواء .

وتتضافر هذه العوامل المتنوعة والمتضاربة كلها ، على زيادة البلبلة في الأفكار والنزعات ، واشاعة الفوضى في البلاد ، واضرام نيران التفرقة بين المواطنين ..

ان الأمة الألمانية قبل سنة ١٨٧٠ ، والامة الايطالية قبل سنة ١٨٦٠ كانت في هذه الحالة .

والامة العربية لا تزال في هذه الحالة . . »

*

كتبت هذه الاسطر ونشرتها قبل خمس سنوات، وأنا أشعر بألم مرير من التفكير في أحوال العالم العربي : قسم كبير منه محروم من الاستقلال، ومقيد بأغلال الحماية والاستعمار؛ والقسم المستقل منه منقسم الى ثماني دويلات ، تتمسك كل واحدة منها بالحدود الاصطناعية التي رسمها لها الحكم الاجنبي ، ويعتبر المحافظة على تلك الحدود من أوجب الواجبات الوطنية التي لا يجوز التفريط فيها بأي حال من الاحوال .

وأصبحت الامة العربية – بسبب هذه الاوضاع – من أضعف أمم الارض ، على الرغم مما كان لها من مجد باهر في العصور السالفة، وعلى الرغم مما لها من امكانيات هائلة في الحالة الحاضرة .

٢

إن هذه الاحوال لم تتغير كثيراً منذ ذلك التاريخ .

في الواقع ان « العروبة » أحرزت – خلال هذه المدة – عدة انتصارات هامة في بعض الميادين، ولكنها تعرضت الى بعض الخسائر ايضاً ، في ميادين اخرى :

ان الثورة المصرية قضت على الحكم الملكي ، وأزالت بذلك أحد عوائق الاتحاد . فان العرش المصري كان اقدم العروش القائمة في الشرق العربي ، ونستطيع أن نقول : انه كان العرش الوحيد الذي يستحق النعت بالقديم. وكان له جذور عميقة وأسس

متينة ، تقوّت وتأصلت بعمل عدة أجيال من أرباب السياسة والصحافة ورجال الدين والتعليم . فالقضاء على هذا العرش ، لا شك في أنه كان خدمة ثمينة لفكرة القومية العربية ، ولمستقبل هذه الفكرة .

ثم ، ان رجال الثورة ، بحكم اتصالهم القديم والعميق بطبقات الشعب ، وبسبب اشتراكهم الفعلي بمعارك فلسطين . . قدّروا الروابط المعنوية التي تربط مقدرات مصر بمقدرات البلاد العربية الاخرى ، وأدركوا القدرة الكامنة في فكرة الوحدة العربية ، لمستقبل مصر بوجه خاص ، ولمستقبل سائر البلاد العربية بوجه عام ، وأعلنوا — لذلك كله — ايمانهم بالعروبة ، منذ بداية الامر .

وأخذت فكرة القومية العربية تنتشر في مصر — بعد قيام الثورة — بسرعة كبيرة ، وتحقق بذلك ما كنت أتوقعه وأتمناه بكل جوانحي منذ عدة عقود من السنين : تبنت مصر فكرة القومية العربية ، وصارت تعمل من أجلها ، بكل قوة ونشاط .

هذا ، من جهة ، ومن جهة اخرى ، فان الوعي القومي اشتد في جميع أنحاء المغرب العربي ، وصار يدفع الجماهير الى العمل للتحرر من ربقة الاستعمار ، عملاً مقروناً بروح التضامن والتضحية والايثار . ووصلت الحركات القومية الاستقلالية في ذلك القسم من العالم العربي الى حد ، يثلج الصدور ، ويبشر بمستقبل أفضل ونصر قريب . .

ولكن — مقابل ذلك — تعرضت فكرة القومية العربية — في بعض الميادين — الى شيء من الفتور والاسترخاء ، وصل الى

حد التراجع والارتداد في بعض الأحوال .

فان السياسة الدولية ، وجدت في الأحوال الحاضرة فرصة مواتية للتأثير على بعض الدول العربيـــة ، وقامت بمناورات عديدة، انتهت الى ربط احدى الدول العربية الى عجلة من العجلات العالمية، وأخذت تسعى الى جرما جاورها أيضاً الى نفس الاتجاه . ونتج عن ذلك بلبلة خطيرة في السياسة العربيـة ، كادت تؤدي الى حدوث انشطار في قلب العالم العربي وسرة حياته . ومـــا يؤسف له كل الأسف ، أن بعض الكتاب والساسة — في مختلف البلاد العربية — لم يقدروا أخطار هذا الاتجاه ، حتى أنهم صاروا يحبذونه ويدافعون عنه .

وقد فات هؤلاء ، أن المكانة التي يتمتع بها العـالم العربي في السياسة الدولية ، تستند — في الدرجة الاولى — الى وقوعه في ملتقى القارتـين ، والى سيطرته على هذا الملتقى بمخالب قوية وأجنحة واسعة، تمتد الى طرفيه الى مسافات شاسعة. ان انشطار العالم العربي على النمط الذي أشرت اليه آنفاً ، يفقده هذه المكانة الخطيرة ، ويذهب بكل ما له من أهمية سياسية واستراتيجيـة .

ومن المعلوم ان السياسة الدوليـــة — ولا سيما السياسة البريطانية — بذلت جهوداً متواصلة لاحداث هذا الانشطار ، منذ صدور « وعد بلفور » ، وذلك بدق « الاسفـين » الذي أسموه في بادىء الأمر باسم « الوطن القومي لليهـود » ، والذي انتهوا الى تسميته باسم « دولة اسرائيل » .

وأنا أعتقد بان الاتجاه الذي حبذه بعض الكتاب والساسة —

بدون تفكير وروية- يكون بمثابة اضافة اسفين معنوي جديد، الى ذلك الاسفين المادي البغيض ...

٣

يتبين من كل ما سبق : ان فكرة العروبة لا تزال تجابه مقاومة شديدة من بعض البيئات ، كما انها تتعرض الى هجمات عنيفة من بعض البيئات .

هناك طائفة من الكتاب والساسة لا تؤمن بوحدة الامة العربية ، ولذلك لا تبذل أي جهد في هذا السبيل .

وبينهم من لا يكتفي باتخاذ مثل هذا الموقف السلبي في هذا المضمار ، بل يزدري بكل من يؤمن بوحدة الامة العربية ، ويتهمهم بالخيالية .

والبعض منهم يمضي في هذا المضمار الى أبعد من ذلك ، يتهم دعاة العروبة بضعف التفكير ، وينتقدهم أشد الانتقاد .

ولكن هناك طائفة اخرى، لا تكتفي بنقد وتسخيف فكرة الوحدة العربية ، بل تعتبر هذه الفكرة من الامور الضارة التي يجب محاربتها ، وتتهجم على العروبة وعلى دعاتهـــا ، هجوماً عنيفاً .

اني كتبت الفصول التالية ، لاستعراض ونقض هذه الآراء والأعمال ، وللدفاع عن العروبة ، تجاه الهجمات الضالّة المضلّلة التي يشنها عليها هؤلاء بصور ووسائل شتى .

مونترو ٢٠ / ٧ / ١٩٥٥ ساطع الحصري

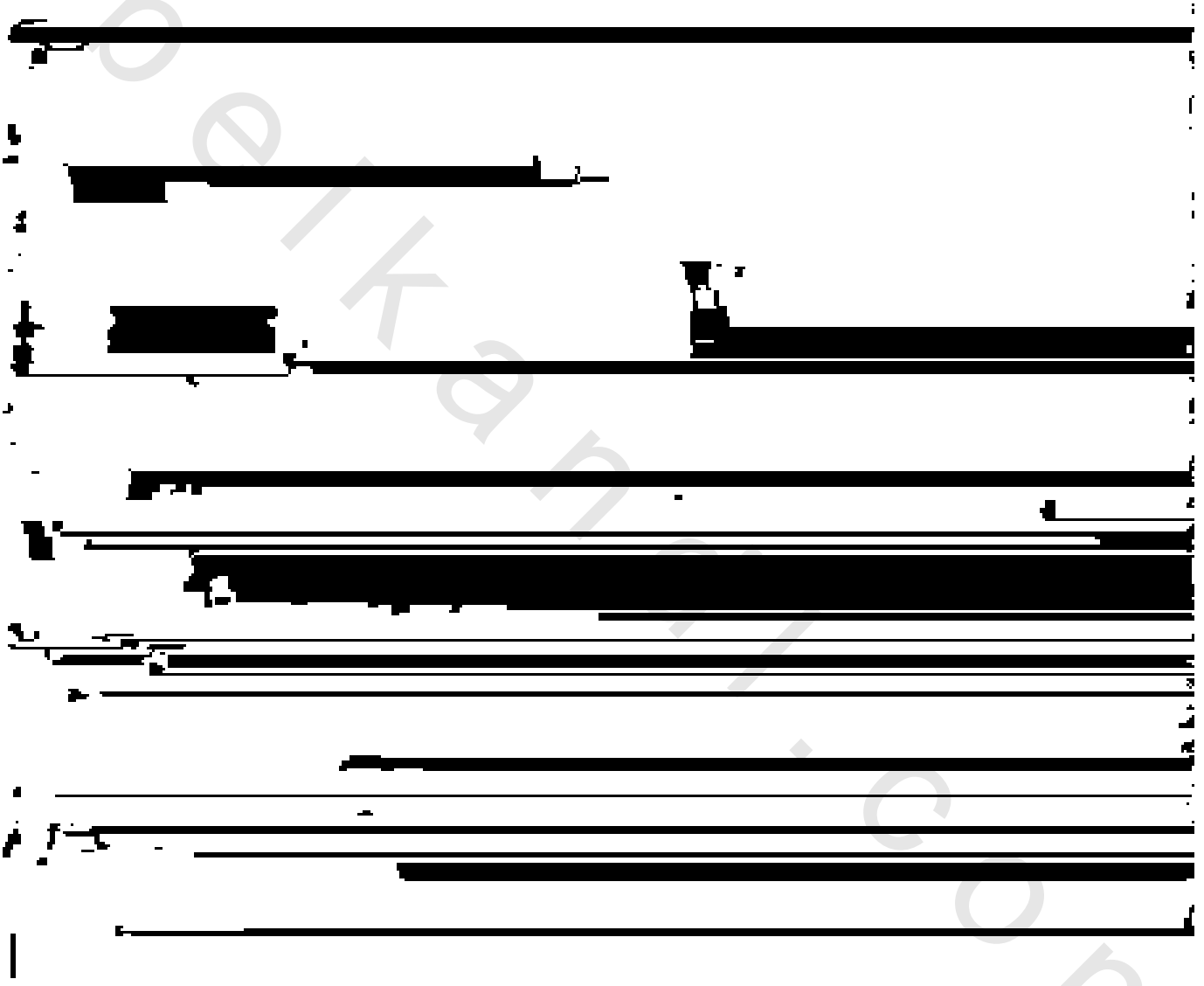

obeikandl.com

في حفلة مدرسية

١

عندما كنت اقلب صفحات جريدة يومية في بيروت ، في بداية هذا الصيف ، وقع نظري على عنوان ضخم ، يتوج ثلاثة أعمدة ، بحروف كبيرة :

« حصاد الموسم في المدارس »

فأخذت أقرأ ما تحت العنوان ، مدفوعاً بميلي القديم نحو تتبع شؤون المدارس والتربية والتعليم .

وقد فهمت من قراءة السطور الاولى ، ان الجريدة تصف حفلة مدرسية ، أقيمت في الجبل ، بمناسبة توزيع الشهادات على المتخرجين ، ومنح الجوائز للمتفوقين ، بحضور جمع غفير من الأهلين بينهم بعض الوزراء في حكومة لبنان .

وقد جاء في الجريدة ما نصه :

« كان خطيب الحفلة الاستاذ .. خاطب الخريجين قائلاً :

« نحن نهاية جيل ، وأنتم نقطة الابتداء في جيل جديد » ثم ناشدهم أن يستوحوا الايجابية في كل شيء . وان الامور السياسية ليس فيها احقاد دائمة ولا صداقات دائمة . بل هي المصالح القومية العليا التي تفرض في الاخير القصد والاتجاه .

« ثم تلاه الطالب ... عن الدائرة العربية الانجليزية ، فالقى كلمة نثرية أنهاها بقصيدة من نظمه في وداع المعهد ، مشيراً الى وحدة الشعب التي تعلو على خلافاته الطائفية .

« ثم جاء دور الطالب ... فألقى خطاباً عن الدائرة العربية الفرنسية ، قال فيه :

« أقف بينكم في هذه الساعة ، وفي نفسي عزم وقوة ، وفي عيني بريق أمل لامع ، انظر الى الحياة نظر المطمئن الواثق ، بعد ان عرفت حقيقتي ، وآمنت انني جزء من مجتمع ، وجندي في معسكر ، يستعد لمعركة فصل الخطاب .

« ان مدرسة الحياة الكبرى تعلمنا ان الطالب هو نقطة الانطلاق والارتكاز في بناء مجتمع أفضل . وان الامة تنتظرنا وقد وضعت ثقتها – كل ثقتها – بنا ، تأبى ان تراانا بعيدين عن معركة تحريرها ... فالطلبة ، وهم من هذا المجتمع وله ، سلاحهم في معركة التحرير هو الايمان والمعرفة ، مع الاستعداد الدائم لدفع ضريبة الدم ، حين يدعو الواجب .

« ان خير بلادنا لنا نحن ، لنتمتع به ونستغله فيما يعود على امتنا بالتقدم والارتقاء . وما وصولنا الى ما وصلنا اليه الا

نتيجة انصرافنا عن قضية بلادنا الكبرى الى العنعنات الطائفية البغيضة والتحزبات الاقطاعية النيو رجعية ، المتلبسة برداء أحمر ، مستوردة من خارج بلادنا .

« أيها الاخوان ! ان في شعبنا كل علم ، وكل فن ، وكل فلسفة . ولكن منابع العبقرية الكامنة فينا قد علاها الصدأ ، وهي تنتظر من يفجرها نوراً وفكراً واشعاعاً . ولتحقيق هذا الانقلاب الشامل ، نحن بحاجة للسير بالحركة الفكرية الاجتماعية ذات النظرة الجديدة الى الحياة والكون والفن ، المستمدة من روح تاريخنا وواقع حياتنا .

« الطالب ، يا سادة ، هو مواطن في حقل اختصاصه ، وعليه ان يكون منتجاً بطريقة ما . وعلى قدر وعيه لقضيته وايمانه بنفسه يكون بذله وعطاؤه .

« فيا زملاء الدراسة ، ويا رفقاء السلاح : ان الامة قد وضعت على اكتافكم عبئاً ثقيلاً . هو عبء تحرير أجزاء الوطن الضائعة ... » .

قرأت الخطاب الى هنا ، باهتمام متزايد ، لاني لاحظت بين أسطره عدة كلمات وعبارات ذكرتني بخطب انطون سعادة ومريديه . ولكني دهشت دهشة عظيمة ، عندما قرأت الأسطر التي تلي ذلك ، وعلمت ما يقصده من تعبير « أجزاء الوطن الضائعة » .

اذ يقول الطالب بعد العبارات التي نقلتها آنفاً :

« عبء انقاذ فلسطين ، وقبرص وسيناء وكيليكية

والاسكندرون .»

« ان الامة وضعت على اكتافكم هذا العبء الثقيل ، لأنها تعلم ان اكتافكم اكتاف جبابرة . وسواعدكم سواعد أبطال . . »

اذن ، فأن أجزاء الوطن الضائعة – في نظر صاحب الخطاب – هي : فلسطين ، وقبرص ، وسيناء ، وكيليكية والاسكندرون.

انه يدعو – في هذا الخطاب – زملاءه ورفقاءه الى العمل في سبيل انقاذ هذه البلاد من ربقة المسيطرين عليها . .

طبيعي ان انقاذ فلسطين إنما يعني تحريرها من حكم الصهيونيين وإنقاذ قبرص يعني تخليصها من حكم الانجليز ، وانقاذ الاسكندرون وكيليكية يعني تحريرهما من الاتراك ؛ واما إنقاذ سينا ، فلا يمكن ان يعني الا تخليصها من حكم المصريين ! . .

اذن ، فان مصر التي تحكم سينا ، أجنبية – في نظر الطالب الخطيب – مثل الانجليز والاتراك والصهيونيين ! . .

فكان من الطبيعي ان تعتريني دهشة عظيمة ، عندما اقرأ القسم الأخير من الخطاب الذي نقلته الجريدة البيروتية .

٢

ويجب عليّ ان اصرح بان سبب الدهشة التي اعترتني عند قراءة المقال ، لم يكن اطلاعي على هذا الضلال الفكري ، بل كان الشكل الذي ظهر فيه هذا الضلال ، والظروف التي لابست ظهوره .

لأن الضلال الفكري الذي ظهر خلال هذا الخطاب ، لم

يكن الأول من نوعه . فأني كنت قرأت وسمعت كثيراً من أمثاله ، منذ سنوات عديدة. وكنت أعرف أنه من جملة «تعاليم» الحزب الذي أسسه انطون سعادة . لأن هذا الحزب ينكر وجود « قومية عربية » ، ويدعو الناس الى الايمان بقومية من نوع خاص ، خطت حدودها ومعالمها مخيـــلة مؤسس الحزب وأهواؤه بصورة اعتباطية .

فاني ان أنس ، لا أنس فقرة كنت قرأتها قبـل سنوات عديدة في جريدة بيروتية تحت عنوان « غزة بعد الاسكندرونة » كان كاتبها أحد مريدي انطون سعادة ، وكان قد كتبها بمناسبة الأخبار الواردة عندئذ عن « انشاء ادارة مصرية في غزة » . انه كان يعتبر ذلك بمثابة كارثة قومية نزلت على رأس سوريا ، مثل كارثة انتقال اسكندرونة الى حكم الاتراك !

ولذلك ما كان لي ان اندهش مما قرأته اخيراً في جريـدة « صدى لبنان » ، لو لم الاحظ ان هذا الضلال الفكري ظهر – هذه المرة – على لسان طالب في عنفوان الشباب ، يتخطى عتبة المدرسة الى ساحة الحياة ، وذلك في خطاب يلقيه خلال الاحتفال بتوزيع الجوائز والشهادات .

فان المقالة التي قرأتها بمناسبة هذا الاحتفال ، أظهرت لي ان بذور الضلال التي نثرها انطون سعادة ومريدوه ، دخلت حرم المدارس ، وصارت تضلل الشبان في معنى الامة والوطن ، وفي معنى المواطنين والاجانب .

انها توصلت الى تضليل هذا الشاب ، حتى جعلته يعتبر قبرص

جزءاً من الوطن الذي يجب ان يعمل لانقاذه ، كما يعتبر مصر أجنبية عنه ، مثل الأتراك والانجليز والصهيونيين .

وهذا هو سبب الدهشة التي اعترتني عندما اطلعت على هذا الخطاب في جريدة صدى لبنان .

٣

اني كنت درست آراء انطون سعادة وتعاليمه ، درساً تفصيلياً ، ونقدتها نقداً علمياً في كتابي « العروبة بين دعاتها ومعارضيها » . الذي نشر قبل مدة تقرب من خمس سنوات ولم أعد الى كتابة شيء عنها بعد ذلك التاريخ ، لاعتقادي بان تلك الانتقادات لم تكن في حاجة الى المزيد .

ولكني علمت — مما حدث بعد ذلك — ان الحزب واصل أعماله التضليلية ، واستطاع أن يتغلغل في بعض الأوساط ، لأسباب عديدة ، ووسائل شتى .

اولاً ، استفاد رجال الحزب من الاختلافات التي قامت بين حكومتي سوريا ولبنان . فان الحكومتين المذكورتين تناوبتا العطف على الحزب والتنكر له ، عدة مرات : عندما غضبت عليه حكومة لبنان عطفت عليه وساعدته حكومة سوريا ، وعندما غضبت عليه سوريا عطف عليه لبنان ، وهيأ له وسائل العمل والنشاط في اراضيه .

فضلاً عن ذلك ، وجد رجال الحزب ، في السنوات الأخيرة حماية وتشجيعاً من جماعات وهيئات أخرى ، رسمية وغير رسمية

عربية وغربية .

صارت هذه تحمي وتساعد الحزب ، لانها تعتبره آلة ناشطة لمحاربة الشيوعية ، كأن الشيوعية لا يمكن ان تحارب إلا بالتنكر للعروبة !

وأخذت جماعة تصفق له ، لانه صار يدعو الى اتحاد سوريا مع العراق ، كأن الاتحاد بين البلدين يمكن ان يتم من غير الاستناد الى فكرة العروبة ، وكأن انكار القومية العربية يعود بفائدة ما على أي واحد منهما!

وصارت جماعة تحبذه لانه يدعو الى الغاء الطائفية ، كأن الدعوة الى ذلك تنحصر في هذا الحزب ، وكأن زوال الطائفية يتوقف على تبعيد فكرة العروبة من الأذهان والقلوب .

هذا ، ويجب أن لا يغرب عن البال ، بان تغيير اسم الحزب أيضاً عاد عليه بفوائد عديدة : اذ من المعلوم انه كان يسمى — في بادىء الأمر — باسم « الحزب القومي السوري » . وبما ان حكومة لبنان رأت في هذا العنوان خروجاً على أحكام الدستور ، وامراً يقع تحت طائلة القانون ، غيّر أنطون سعادة اسم حزبه وسماه « الحزب القومي الاجتماعي » .

ولا يخفى ان كلمة « القومي » من الكلمات المحببة الى النفوس كما ان الاصلاح الاجتماعي من الامور التي يتوق اليها المواطنون المخلصون .

وصار الكثيرون من الشبان ينخدعون بهذا الاسم ، وينجذبون الى الحزب ، من غير ان يتأملوا فيما وراءه من

مقاصد هدامة .

ان مريدي انطون سعاده يسمون انفسهم « قوميين » ، في الوقت الذي يحاربون « القومية العربية » ، ويدعون المؤمنين بالعروبة – « مرضى العقل والنفس » .

امام هذه الاحوال والوقائع ، رأيت ان اعود الى مناقشة تعاليم هذا الحزب ، وان الفت الانظار – مرة اخرى – الى ما تنطوي عليه من ضلال وتضليل .

obeikandl.com

نظرات
الى دستور الحزب وأساليبه

١

لقد جاء في مقدمـــة « دستور الحزب السوري القومي الاجتماعي » ما يلي :

« تأسس الحزب السوري القومي الاجتماعي بموجب تعاقد بين الشارع صاحب الدعوة الى القومية السورية وبين المقبلين على الدعوة ، على ان يكون واضع أسس النهضة السورية القومية الاجتماعية زعيم الحزب مدى حياته ، وعلى ان يكون معتنقو دعوته ومبادئه أعضاء في الحزب يدافعون عن قضيته ، ويؤيدون الزعيم تأييداً مطلقاً في كل تشريعاته واداراته الدستورية » .

يلاحظ ان كل من ينتمي الى الحزب ـ نظراً الى هذه المقدمة ـ يكون قد تعهد بتأييد الزعيم تأييداً مطلقاً في كل تشريعاته واداراته الدستورية » .

في الواقع ، ان هذه التشريعات والادارات مقيدة هنا بالدستورية ، ولكن الدستور لا يتضمن أي نص على وجودهيئة تمثيلية ، ولذلك يصبح هذا القيد عارياً عن المعنى – ويكون العضو متعهداً بتأييد الزعيم تأييداً مطلقاً في كل تشريعاته وادارته .

انه الشارع ، وصاحب الدعوة ، وله وحده الحق في وضع تشريعات جديدة ، وليس لمريديه الا الطاعة والتأييد ، وذلك مدى حياته .

٢

واما شروط الدخول في الحزب ، فتبينها المادة التاسعة من الدستور المذكور – الدستورالذي وضعه الشارع انطون سعادة بنفسه – بالنص :

« كل سوري ذكراً كان أم أنثى يحق له دخول الحزب السوري القومي الاجتماعي ، على ان تتوفر فيه الشروط الآتية :

أ – ان يكون قد بلغ الثامنة عشرة من عمره .

ب – ان لا يكون قد تجاوز الاربعين من عمره .

ج – ان لا يكون مجرماً ضد المجتمع او ضد الأمة .

د – ان يدين بالقومية السورية. وأن يعتنق مبادىء الحزب السوري القومي الاجتماعي ونظامه .

هـ – ان يكون مستعداً لاداء القسم الآتي :

« أنا ... اقسم بشرفي وحقيقتي ومعتقدي على أن انتمي الى

الحزب السوري القومي الاجتماعي بكل اخلاص وكل عزيمة صادقة ، وان اتخذ مبادئه القومية الاجتماعية ايماناً لي ولعائلتي وشعاراً لبيتي ، وأن احتفظ بأسراره. وأن لا ابوح بها لا بالقول ولا بالكتابة ولا بالرسم ولا بالحفر ولا بأية طريقة او وسيلة أخرى ، لا تطوعاً ولا تحت أي نوع من أنواع الضغط . وأن احفظ قوانينه ونظاماته وأخضع لها ، وأن أحترم قراراته وأطيعها ، وان انفذ جميع ما يعهد به اليّ بكلّ أمانة ودقة . وأن اسهر على مصلحته وأؤيد زعيمه وسلطته . وأن لا أخون الحزب ولا أي فرع من فروعه ولا أفراده ولا واحداً منهم . وأن اقدم كل مساعدة أتمكن منها الى أي عضو عامل من أعضاء الحزب متى كان محتاجاً اليها . وان افعل واجباتي نحو الحزب بالضبط . على كل هذا أقسم أنا ... »

في هذه المادة ، عدة نقاط تستوقف النظر وتستوجب التأمل ملياً :

أولاً : — يشترط الدستور في العضو أن لا يكون قد تجاوز الاربعين من عمره . لماذا ؟ ان سن الاربعين في معظم دساتير العالم هو الحد الادنى للتعيين في مجالس الاعيان والشيوخ . وهو بموجب هذا الدستور الحد الاقصى للدخول في الحزب ما حكمة ذلك؟ ألأن الذين تجاوزوا هذا الحد من العمر لا يفهمون ، أو لا يعلمون ، أم لانهم لا ينخدعون ، ولا يطيعون ؟.

مهما كان السبب فان هذه نقطة جديرة بالملاحظة ، يجب ان لا تغرب عن البال .

ثانياً : ـ يلاحظ ان من ينتمي الى الحزب لا يقيد نفسه فقط بل يقيد عائلته ايضاً بقيود الحزب . لانه يقسم على ان « يتخذ مبادئه ايماناً له ولعائلته وشعاراً لبيته » . تماماً كما يفعل المسلم والمسيحي ، في فرض دينه على أولاده ، يجب على كل منتم الى الحزب القومي السوري ان يفرض مبادىء الحزب على أولاده.. بل اكثر من ذلك : على جميع أفراد عائلته . (ولا ادري اذا كان ذلك يشمل الام والاب والاخوة والاعمام والاخوال ايضاً) .

ثالثاً : ـ يلاحظ ان القسم يتضمن حفظ أسرار الحزب .

اذن ، فان للحزب اسراراً وأسراراً هامة جداً ، يجب ان لايبوح بها أحد من الاعضاء لا بالقول ولا بالكتابة ولا بالرسم او الحفر ، ولا بأية طريقة او وسيلة اخرى. ثم ان هذه الاسرار هي من النوع الذي قد تعرض صاحبها الى الضغط والاكراه . فيطلب منه ان يقسم على انه لا يبوح بها ، حتى ولو تعرض الى اي نوع من أنواع الضغط ، ويدخل فيها بطبيعة الحال ، النوع الذي يصدر من سلطات الامن ورجال التحقيق في بعض الاحوال .

لماذا ؟

إن ما هو معلوم عن حوادث اغتيال رياض الصلح في عمان ، وعدنان المالكي في دمشق ، يعطي الجواب الفعلي لهذا السؤال.

ولتكوين فكرة اوضح عن نظرة القوم الى « الشارع » و « صاحب الدعوة » انطون سعادة ، يجدر بنا أن نلتفت الى

« حفلات الميلاد » التي يقيمونها له كل عام ، ليلة أول آذار .

ان غاية هـذه الحفلات وروحهـا تظهر بكل وضوح من « التعميم » الصادر عن « عمدة التدريب » - والمنشور في جريدة الحزب - ، بهذه المناسبة سنة ١٩٥١ .

هذا التعميم موجه الى « جميع المنفذيات العامة والمديريات المستقلة ، في الوطن وعبر الحدود » .

حضرة المسؤول المحترم

تحية سورية قومية اجتماعية ،

لئن مجدت امة ذكرى حادثة من حوادث تاريخها ، فانما هي في تمجيدها لهذه الحادثة لا تتعدى الحدود الزمنية المحيطة بتلك الحادثة ، أو المغلفة لها في اطار زمني محدود . أما نحن فاذا مجدنا ذكرى أول آذار ، فانما نمجد فيها الحياة كلها ، بعزها وانطلاقها وشمولها ، وبما أودعته وتودعه في أجيالنا من عبقرية وقيم وارتقاء ونهوض . فأول آذار لنا ليس له ما قبله وما بعده ، انه شمول الحياة في امتنا ، منذ كانت امتنا ابنة الحياة البكر ، ومنذ تفجرت ينابيع الحياة فيها ، لتنهل منها امم العالم خيراً وحقاً وجمالاً .

ولئن احتفلت امة بذكرى ميلاد عظيم من عظمائها فانها لا تخرج باحتفالها بذكرى هذا العظيم عن تمجيد صفة من صفاته ، ترى فيها فخراً لها يجعلها في مصاف الامم الراقية . اما نحن فاذا احتفلنا بذكرى ميلاد الزعيم فاننا نحتفل بعطاء الحياة الخيرة في هذه الذكرى ، اننا نحتفل بعطاء الحياة الذي لا يحد . فسعادة

عندنا ليس بطلاً ربح معركة ، أو شاعراً نظم ملحمة ، أو مكتشفاً اكتشف مجهولاً ، أو كاتباً ألف سفراً فحسب ، انه صوت الحياة فينا ، ومجسّد قيمها لنا ، والناطق بلسانها ، والمعبر عن ارادتها .

فليكن اذن احتفالنا بأول آذار ، وبذكرى ميلاد فتى أول آذار ، عظيماً في نفوسنا عظمة الحياة ، وعظمة ابنها البكر ، وقائد ابنائها الى العز والمجد والنور .

وتعبيراً عما في نفوسنا لهذه الذكرى وتجسيداً مادياً لهـا ، فلنتجاوب في الساعة السابعة من مساء التاسع والعشرين من شهر شباط ، هتافات السوريين القوميين الاجتماعيين في اجواء الوطن السوري الحبيب بحياة سورية وحياة وليدها العظيم .

وفي السابعة تماماً من مساء النهار نفسه ليجتمع القوميون الاجتماعيون في كل مديرية تابعة أو مستقلة ، وفي مركز كل منفذية عامة احتفالاً بأول آذار ، وتمجيداً لمولد فتاه . وليعلن بدء الاجتماع بالايعاز التالي :

الزعيم سلام خذ يحيا سعادة

ثم تتلى كلمات الرفقاء المعدة حسب البرنامج المحلي . وبالنهاية تتلى كلمة عمدة الاذاعـة ، ليعلن بنهـــايتها اختتام الاجتماع باسم سورية وسعادة ، يتلوه سلام الزعيم ، ثم الهتـاف الحزبي الرسمي :

يا أبناء الحياة لمن الحيـاة — لنا

لمن نحيا — لسوريا

من هو قائدنا - سعادة

يحي سعادة - يحي

يحي سعادة - يحي

يحي سعادة - يحي يحي يحي

تحي سورية - تحي

تحي سورية - تحي

تحي سورية - تحي تحي تحي

وليكن ليل أول آذار عيداً للقوميين الاجتماعيين ، يقيمون فيه السهرات القومية الاجتماعية ، ويتناولون فيه سيرة الزعيم القائد .

وليكن نهار اول آذار عيداً يمتنع فيه القوميون الاجتماعيون عن مزاولة أعمالهم الخاصة ، ويقدمون في الساعة العاشرة من صباحه تهانيهم لهيئة المديرية او المنفذية العامة بولادة منقذ الامة وهاديها .

ولتحي سورية وليحي سعادة

حول
النقاش السابق

١

اني كتبت ما كتبته في « نقد آراء انطون سعادة » في كتابي « العروبة بين دعاتها ومعارضيها » (ص ٧٢ — ١٥٠) بعد أن درست كتاباته دراسة تفصيلية ، وبعد ان اتصلت به شخصياً وناقشته في مسائل عديدة .

وقد التزمت في نقدي جانب « الحياد العلمي » كل الالتزام ولم اشترك مع الذين كانوا يهاجمونه على طول الخط ، ولا مع الذين كانوا يصفقون له تصفيقاً أعمى . بل حاولت أن أبين ما في آرائه وأعماله من وجوه الخطأ والصواب . حتى اني أظهرت « الخميرة الفاسدة » التي أضلته سواء السبيل ، ودفعته الى معاداة « القومية العربية » ، ومهاجمتها بعنف وشدة .

وقد قلت :

« أسس سعاده الحزب القومي السوري ، لمحاربة روح الطائفية والنزعة الانعزالية التي لاحظهما في لبنان ، في الوقت الذي ما كان يعرف بعد شيئاً يذكر عن احوال سائر البلاد العربية . ولذلك أخذ يدعو الى فكرة « القومية السورية » ، منددآ بالانعزالية اللبنانية الضيقة من ناحية ، وبالقومية العربية الشاملة من ناحية اخرى .

« ولكنه عندما أخذ يطلع شيئاً فشيئاً على أحوال البلاد العربية عن قرب ، لاحظ على الفور الروابط الوثيقة التي تربط سوريا والعراق ، من وجوه عديدة ، وأدرك بذلك ضرورة توسيع مفهوم القومية التي يدعو اليها .

« غير أنه — لغوصه في معامع النضال الحزبي السياسي — لم يشأ أن يعترف بخطئه الاول ، فلجأ الى ادخال العراق في مفهوم « سورية الطبيعية » ، واخذ يسميه باسم « سورية الشرقية » ، ووسع بذلك نطاق أهداف الحزب ، دون ان يغير اسمه .

« انه ظل معارضاً لفكرة القومية العربية ، ومع هذا ادرك ضرورة تأسيس « جبهة عربية » ، واعتقد أنه يترتب على سورية أن تقوم بالدور الأهم في تكوين وتوجيه هذه الجبهة ، مع تقويتها على الدوام .

« ولا شك في ان التطور الذي حصل في آراء انطون سعادة كان من شأنه ان يوصله — عندما يستمر — الى تطور آخر ، ويحمله على تحويل فكرة « الجبهة العربية » بصورة تدريجية الى نوع من الفدرالية العربية » .

« هذه هي الفكرة الاساسية التي تكونت في ذهني سنة

١٩٤٨ ، بعد اجتماعي بزعيم الحزب ، واطلاعي على نزعاته الأصلية .

« وقلت في نفسي عندئذ ، « لا شك في أن الرجل سيلتقي بنا في آخر الأمر ، عاجلًا أو آجلًا » .

« ولكن الامور تعقدت بعد ذلك بسرعة كبيرة ، وانتهت انفاس الرجل فجـــأة ، في ظروف شاذة ، جمعت بين خصائص الملهاة والمأساة » .

ثم قلت — بعد دراستي لنشرات الحزب :

« ان هـذه الدراسة اطلعتني على السبب الأصلي الذي كان يدفع زعيم الحزب الى التحـامل على « فكرة العروبة » وعلى « دعوة القومية العربية » تحاملًا عنيفاً .

« لاني لاحظت بكل وضوح ان فكرةالعروبة كانت تختلط في ذهن انطون سعادة مع معاني البداوة الصحراوية من ناحية ، ومع الحزبية المحمدية من ناحية أخرى : قـد توهم الرجل ان فكرة « الوحدة العربية » ما هي الا قناع يتقنع به دعاة الطائفية الاسلامية ، ولذلك أخذ يحمل عليها ، كما كان يحمل على الطائفية بوجه عام .

« وأميل الى الظن بأن أول من صادفهم وخالطهم من دعاة العروبة وحملة الفكرة العربية كانوا من المسلمين ؛ وربمـا كانوا من الرجعيين والمذبذبين ، ولذلك توهم ان كل دعاة العروبة طائفيون ، متسترون أو مقنعون .

« هذه هي خميرة الضلال التي عملت عملهـا في مشاعر زعيم

الحزب ، وأفسدت عليه تفكيره العلمي والسياسي والاجتماعي . هذا هو الخطأ الأساسي الذي جعله ينحرف عن جادة الصواب انحرافاً كبيراً ، ويخالف كثيراً من الحقائق العلمية مخالفة صريحة حتى يناقض نفسه بنفسه احياناً » .

« ان الابحاث التالية ستبرهن على كل ما قلته برهنة قاطعة » .

ثم لخصت رأيي في أنطون سعادة وفي حزبه بما يلي :

« لا يسعني الا ان أعلن إعجابي بنشاط الرجل واندفاعه ، وتحبيذي لمعظم المبادىء الاصلاحية التي يذكرها في تعاليمه . كما لا يسعني الاان اقدر سعيه وراء دعم آرائه السياسية والاجتماعية بنظريات علمية — غير اني آسف كل الأسف على « خميرة الضلال » التي استولت على ذهنه ، وأبعدته في كثير من المواقف والامور عن مناحي الأبحاث العلمية ، وحجبت عن انظاره كثيراً من الحقائق الاجتماعية » .

« وكل ما اتمناه الآن من مريدي انطون سعادة ومعتنقي تعاليمه ، هو : أن لا يقفوا جامدين في المكان الذي كان وصل اليه زعيمهم ، ولا يبقوا متمسكين بالموقف الذي وقف عنده هو بتأثير خميرة الضلال التي ذكرتها آنفاً ، بل يواصلوا التطور الذي كان قد بدأه ، وذلك بالتباعد عن مواطن الخطأ — التي انزلق اليها مؤسس الحزب ، وبالتخلص من آثار « الخميرة الفاسدة » التي ذكرتها آنفاً .

« وأرى أنه يترتب عليهم أن يقتدوا بزعيمهم الراحل في روح النشاط والتنظيم الذي امتاز به ، دون أن يستمروا في

السير وراء خطئه ، فيستفدوا قواهم في تأييد الأخطاء التي وقع فيها . »

« اني أنشر هذه الأبحاث الانتقادية ، آملاً في مساعدة مريديه على التطور والتقدم ، في سبيل خـــدمة البلاد العربية ، ونهضة الامة العربية »

وبعد ذلك استعرضت آراء انطون سعادة وانتقدتها في خمسين صفحة .

اني عملت ذلك بكل تجرد واخـلاص ، و كنت أظن ان مريدي انطون سعادة أيضاً سيقرأون انتقاداتي بتجرد واخلاص، ويستفيدون منها ، استفادة كبيرة .

الا أن ما حدث بعد ذلك أعلمني ، اني كنت على خطأ عظيم في هذا الأمل . لأن الجماعة نشأوا على اعتبار « تعالـيم انطون سعادة » بمثابـــة كلام منزل ، يجب بذل الجهود لفهم المعاني المقصودة منه ، دون أن يترك مجالاً للشك في صحته .

ان التفاصيل التالية ، ستظهر هذه الحقيقة الى العيان :

٢

ان أول تعليق ظهر في جريـدة الحزب ، كان في « زاوية التسلية العامة » .

يخاطب فيها الكاتب « ابن عمـــه في الضيعة » ، ويقول له — جواباً على سؤاله .. « ان كتاب العروبة بين دعاتها ومعارضيها لا يسوى الورق الذي طبع عليه » . ومع هـذا يرى أن يلفت

النظر الى « ان ساطع الحصري في كتابه هـذا أخرج مصر من عروبته ... »

ولا أراني في حاجة الى القول بأن هذا الزعم – وهذا الادعاء – أدهشني تماماً . لأن ما كتبته عن عروبة مصر ، يبلـغ أضعاف أضعاف ما كتبته عن عروبـــة سائر الأقطار العربية . فاني لم انقطع عن مناقشة عدد كبير من كبار كتاب مصر ومفكريها في أمر العروبة ، منذ عشرين عاماً .

فالقول – مع ذلك – بأني اخرجت مصر من نطاق العروبة يكون بمثابة انكار وجود الشمس في رائعة النهار . وهو يدل على مبلغ استهتار الجريدة بالحقائق الراهنة . مـــع استخفافها بعقول القراء .

فأرسلت الى الجريدة – « الجيل الجديد » – الكلمة التالية :

« اطلعت أخيراً على الكلمة التهكمية التي نشرتها جريدة « الجيل الجـديد » عن كتابي « العروبة » في عددهـا الصادر في ١٩٥٢/١/٤ .

ما كنت أود أن أعلق على تلك الكلمة ، لو لم اجد فيها من المزاعم ما يشوه آرائي في العروبة تشويهاً صارخاً .

فقد قالت « الجيل الجديد » – في جملة ما قالته : « لكن ... الحصري أبرز أمراً واحداً هاماً جداً ، هو أنه في جميع ما قاله عن العروبة ، وفي جميع ما أعطى من أمثال لم يذكر مصر أبداً . انك لن تجد كلمة مصر في كل ما كتبه حضرته . فهو قد أخرج مصر من عروبته تماماً . فدارت عروبته حول العراق

والاردن والشام ولبنان : دويلات الامة السورية » .

أمام هذه المزاعم الغريبة ، لا يسعني إلا ان اقول :

اولاً : ان كتاب « العروبة » الذي تشير اليه جريدة «الجيل الجديد » ، لم يكن اول ما انشره عن القومية العربية . فاني اصدرت في مصر – قبل طبع كتاب العروبة في بيروت بنحو ستة اشهر – كتاباً عنوانه « آراء واحاديث في القومية العربية » . ان نظرة واحدة الى الكتاب المذكور تكفي للتأكد من ان محور ابحاثه هو « البرهنة على عروبة مصر ، وتفنيد آراء معارضي الفكرة العربية في مصر » . واذا لم اناقش قضية مصر في كتابي الاخير ، فان السبب في ذلك يعود الى انني كنت فرغت من مناقشتها في كتابي السابق ، بتفصيلات وافية .

ثانياً : ان كتاب « العروبة » نفسه لا يخلو من ذكر مصر خلافاً لما ادعته « الجيل الجديد » . فان كلمة مصر مذكورة في اكثر من عشرة مواضع من الكتاب .

مثلاً ، جاء في الصفحة ٥٧ منه ، ما نصه حرفياً : « .. استطيع ان اقول نفس الشيء بكل تأكيد عن سوريا وعن مصر وعن سائر البلاد العربية ايضاً ... »

« ان ما نسميه اللهجة المصرية لا يشمل جميع اقسام القطر المصري . فان لبلاد الصعيد لهجة خاصة بها ، تتميز عن لهجات سائر أقسام « القطر المصري بأجمعها تميزاً صريحاً .. » .

كما جاء في الصفحة ١٣٥ من الكتاب ما نصه حرفياً : « ان سوريا تشبه تونس اكثر مما تشبه العراق ، والعراق يشبه مصر

اكثر مما يشبه سوريا ... » .

وفضلاً عن ذلك ، فان الخارطة الزمانية المرسومة في آخر الكتاب تحتوي حقلاً خاصاً بمصر ، يظهر علاقة القطر المصري بسائر البلاد العربية ، منذ قرون طويلة .

فقول جريدة « الجيل الجديد » ، — على الرغم من كل ذلك — بانني لم أذكر مصر ابداً ، وبأن القارىء لن يجد كلمة مصر في كل ما كتبته ، باني أخرجت مصر من العروبة التي أدعو اليها تماماً ... ما هو إلا افتئات فظيع على الحقيقة والواقع .

ولا بد لي من الاعتراف باني قرأت هذه المزاعم بحيرة عميقة ، لأني كنت أعلم ان جريدة « الجيل الجديد » تصدر عن حزب اجتماعي سياسي ، يدعو في كل مناسبة الى بناء السياسة على اسس علمية ، ولذلك ما كنت أظن أبداً ، انها ستتهرب من مجابهة الحقائق بمثل هذه المزاعم والاساليب . »

والجريدة ، عوضاً عن ان تنشر كلمتي هذه ، نشرت مقالة طويلة ، تشغل اربع صحائف كاملة ، كررت فيها ما جاء في زاوية التسلية ، بدأتها بقولها :

« كنا نود والحق يقال أن نكتفي بما جاء في زاوية « تسلية العامة » كرد مفحم على كتاب العروبة الذي وضعه مؤخراً الاستاذ ساطع الحصري . اذ أن التشويشات الصبيانية التي وردت في هذا الكتاب لا تستحق اكثر من ان تكون « تسلية للعامة » لولا الصبغة العلمية التي حاول المؤلف ان يصبغ بها ابحاثه الرامية الى نقض القومية السورية » .

وبعد ذلك ، أخذت الجريدة ترد على انتقاداتي الواردة في كتاب « العروبة بين دعاتها ومعارضيها » بسلسلة طويلة من المغالطات الغريبة ، تنثر خلالها على مؤلف الكتاب – بكل سخاء – انواعاً من النعوت : تبدأ من « الجهل المطبق » و« عدم الادراك »، وترتقي تدريجياً الى « الترهات المشوشة » و« الاسفاف المنطقي » ، و « التخبطات اللاعلمية » ، و « القول المراء الذي يبدو سخفه لطلاب المدارس الابتدائية » و« ضعف في التحصيل العلمي يترفع عنه طلاب المدارس المتوسطة » ، وتصل – في آخر الأمر – الى « النفسية المريضة » ، وتنتهي بـ « التمشي مع الخطط الاستعمارية الصهيونية » . .

قرأت كل ذلك – في بادىء الأمر – باستغراب شديد . الا ان استغرابي زال تماماً – عندما وصلت الى الفقرات الواردة في المقالة تعليقاً على قولي « كل ما أتمناه الان من مريدي انطون سعادة ومعتنقي تعاليمه هو : أن لا يقفوا جامدين في المكان الذي كان وصل اليه زعيمهم ، ولا يبقوا متمسكين بالمواقف التي وقف عندها هو ، بتأثير خميرة الضلال التي ذكرتها آنفاً . بل يواصلوا « التطور » الذي كان بدأه، وذلك بالتباعد عن « مواطن الخطأ » التي انزلق اليها مؤسس الحزب ، وبالتخلص من آثار الخميرة الفاسدة التي ذكرتها آنفاً »

وقد جاء في المقالة – تعليقاً على قولي هذا – العبارات التالية !

« اننا نود أن نطمئن فيلسوفنا العربي الى ان مريدي انطون سعادة ومعتنقي تعاليمه سيواصلون « التطور »، ولكن في ازدياد

فهمهم لتلك التعاليم والتمكن منها ، ومن نظرتهـــا الاصلية الكاشفة عن حقائق الكون والحياة والفن .. كشفاً علمياً صحيحاً مبرزاً حيوية الامة السورية الكامنة، التي هي المرتكز الاساسي في عملية النهوض » .

...

اذن ، فان تعاليم سعادة – عند مريديه – هي المرجع الاول والاخير ، في البحث والتفكير ، والجهود التي سيبذلونها ستنحصر في الاستزادة من فهم معاني تلك التعاليم ، لانها « تكشف عن حقائق الكون والحياة والفن » .

اذن ، فان المسلك الذي يسلكه مريدو انطون سعادة لاكتشاف الحقائق يشبه شبهاً كبيراً المسلك الذي كان يسير عليه بحاثة القرون الوسطى ، حيث كانوا يرجعون في كل شيء ، اما للكتب السماوية ، واما لمؤلفات اريستوطاليس. ويسترسلون في تحليل وتفسير وتأويل النصوص والكلمات الواردة في تلك الكتب والمؤلفات .

ان مريدي انطون سعادة يعلنون ما يعتقدونه في هذا المضمار بأفصح العبارات وأجلاها : ان تعاليم الزعيم « تكشف » عن كل الحقائق . ليس « حقائق السياسة والاجتماع » فحسب ، بـــل « حقائق الكون والحياة والفن » أيضاً !

*

بعد قراءة هذه العبارات الصريحة . لم أعد استغرب شيئاً من

سلوك هؤلاء وكتاباتهم : ان ثورة الغضب التي تتملك مشاعر مريدي انطون سعادة أمام الانتقادات التي توجه الى زعيمهم « الملهَم والملهِم » ، وكثرة المغالطات الغريبة التي يلجأون اليها للدفاع عن تلك التعاليم ... كل ذلك يجب أن يعتبر من « الامور الطبيعية » ، ما دام القوم يؤمنون به هذا الايمان الأعمى ، ويعتقدون أن أدق موازين الحق وأصح معايير الحقيقة انما هي : كلام المعلم ، وكلمات التعاليم ! .

ولهذا السبب لم أعد أرى اية فائدة من مناقشة هؤلاء بالبراهين العلمية والحجج المنطقية ، فلم احاول الرد على مقالاتهم المختلفة .

واما الفصول التالية التي اكتبها الآن ، فلم أكتبها لمحاججة « المريدين » الذين سبق ان كبلوا تفكيرهم بتعاليم انطون سعادة ، انما أكتبها لألفت أنظار الشبان الذين لايزالون يبحثون عن الحق والحقيقة بأساليب التفكير السليمة .

حـــول
حدود سوريا الطبيعية

١

ان المحور الأساسي الذي تدور حوله آراء انطون سعادة وتعاليمه ، يرتكز على الزعم التالي :

« السوريون أمة تامة ، قائمة بنفسها » .

« والامة السورية ليست جزءاً من الامة العربية » .

فقد حاول أنطون سعادة أن يدعم رأيه هذا بـ « نظريـــة علمية » ، فقال :

ان الامم تتكون بتأثير البيئة الطبيعية . وسوريا تكوّن بيئة طبيعية ، متميزة عن سائر البيئات الطبيعية المجاورة لهـــا . ولذلك تكونت هناك « أمة سورية » ، تختلف عن سائر الأمم اختلافاً أساسياً .

واما ما يسمى بـ « العالم العربي » ، فانـه يتألف من بيئات

طبيعية متنوعة ، ولذلك لم يكوّن أمة واحدة ، بل كوّن أمماً عديدة ، تتميز كل واحدة منها بصفات خاصة بها ...

ولكن هذه النظرية – على الرغم من مظهرها العلمي – بعيدة كل البعد عن الانطباق على حقائق التاريخ والاجتماع .

لأن نظرة واحدة الى أحوال الأمم – الحاضرة والسالفة – تكفي للتأكد من أن أوطان الامم العظيمة تضم – بوجه عام – بيئات طبيعية عديدة ، كما ان تنوع البيئات التي تستوطنها الأمة الواحدة يوسع امكانياتها ، ويزيدها قوة وحيوية .

ولذلك ، نستطيع أن نقول : ان الربط بين وحدة الامة وبين وحدة البيئة الطبيعية يخالف أثبت حقائق التاريخ والاجتماع مخالفة كلية .

ولعل أبرز وأحسم البراهين على ما نقول ، هو : آثار التذبذب والتخبط التي ظهرت في كتابات انطون سعادة نفسه ، عندما أراد أن يحدد ويخطط البيئة الطبيعية التي أنشأت الامة السورية ، وجعلتها – على زعمه – مستقلة ومتميزة عن « الامم العربية » .

كان انطون سعادة يقصد من تعبير « الوطن السوري » – في بادىء الامر – « سوريا الطبيعية » المعروفة في الكتب الجغرافية – ولكنه ، – بعد ذلك – عندما ازداد اطلاعاً على أحوال البلاد العربية – غير رأيه في هذا المضمار ، ووسع حدود ما يسميه « الوطن السوري » نحو الشرق ، وجعله يشمل العراق . وصار يسمي القطر المذكور باسم « سوريا الشرقية » ، وأخذ يدخل العراقيين في عداد السوريين .

ولا أراني في حاجة الى البرهنة على أن انطون سعادة عندما قال - بهذه الصورة - بوحدة سوريا والعراق ، قد هدم بنفسه الأساس الذي كان يبني عليه آراءه السياسية . فان ما من باحث علمي يستطيع أن يسلم بأن العراق وسوريا يكونان بيئة طبيعية واحدة ، متميزة عن سائر البيئات الطبيعية ، وأن يقول بأن مدن البصرة وبعلبك - مثلاً - ، أو بغداد واللاذقية أو الموصل وحيفا ... متماثلة من حيث الأحوال الطبيعية .

فمما لا مجال للجدال فيه بان هذه المدن والبلاد انما ترتبط بروابط اللغة والتاريخ والعنعنات ، لا بعوامل البيئة الطبيعية والمناخ ...

ولذلك ، أستطيع أن أقول ، بدون تردد : ان من يقول بوحدة العراق وسوريا من الوجهة القومية ، لا يستطيع أن يبقى متمسكاً بـ « نظرية البيئة الطبيعية » في تكوين القوميات ، بل يضطر الى تبني نظرية « اللغة والتاريخ » في هذا المضمار ، الا اذا خرج على مقتضيات العقل والمنطق ، وحاول الجمع بين المتناقضات .

٢

في الواقع ان انطون سعادة انكر حدوث تغير ما في آرائه السياسية ، وادعى بأنه كان يعتبر العراق جزءاً من سوريا ، منذ بدء حياته السياسية .

ولكن الطبعة الاولى من كتابه « نشوء الامم » تشهد على

عكس ذلك شهادة حاسمة :

اني كنت درست الكتاب المذكور دراسة تفصيلية في كتابي « العروبة بين دعاتها ومعارضيها » وقارنت بعض الفقرات الواردة في طبعته الاولى مع ما يقابلها في طبعته الثانية، وأظهرت بذلك « التغير الأساسي » الذي طرأ على آراء انطون سعادة في هذا المضمار ، خلال المدة التي مضت بين طبعتي الكتاب – أي بين ١٩٣٨ وبين ١٩٥١ – بكل وضوح وجلاء (ص ١٢٠ – ١٢٨) .

ان كل من يطالع تلك المقارنات – أو يرجع الى طبعتي كتاب نشوء الامم – يتأكد من أن المؤلف كان يذهب – في الطبعة الاولى – الى أن العراق شيء وسورية شيء آخر ، ولكنه – في الطبعة الثانية – صار يعتبر القطر المذكور من أجزاء سورية الطبيعية ، وسماه سورية الشرقية . كما يتأكد من أنه لم يذكر بغداد بين المدن السورية الا في الطبعة الثانية ، ولم يخلع على الدولة العباسية لقب الدولة السورية العباسية الا في الطبعة المذكورة ...

وفضلاً عن ذلك كله ، فقد كتب انطون سعادة في الطبعة الاولى من كتابه عدة فقرات تشير الى التنازع والتخاصم بين سورية والعراق، ولكنه حذف تلك الفقرات من الطبعة الثانية، بعد أن ادخل العراق في حظيرة الوطن السوري الذي يقول به ويدعو اليه .

مثلاً : لقد كتب في الطبعة الاولى من كتاب نشوء الامم

الفقرات التالية :

« لجأ الفرس الى الشيعة ليحدثوا انقساماً يتخلصون فيه من سيطرة سورية الأموية ، وليستعيدوا استقلالهم ونفوذهم الروحيين والماديين . وتابع العراق الفرس لتصبح السيطرة فيه . وتمسكت سورية بالسنة لكي لا تذوب في العراق وبلاد فارس » (ص ٦٧٥) .

مما يدل دلالة قاطعة على انه كان يعتبر العراق - خلال كتابة هذه الاسطر - منفصلاً عن سورية ، ومتميزاً منها ، كما انه كان يزعم بان سورية كانت معرضة الى خطر الذوبان في العراق وبلاد فارس ، لو لم تتمسك بمذهب السنة .

ولكنه - في الطبعة الثانية - حذف كلمة العراق من هذه العبارات كلها ، فقال :

« لجأ الفرس الى الشيعة ليحدثوا انقساماً يتخلصون فيه من سيطرة سورية الأموية ، وليستعيدوا استقلالهم ونفوذهم الروحيين والماديين ، لتصبح السيطرة فيهم ، وتمسكت سورية بالسنة لكي لا تخضع للفرس » .

ان أمثال هذه التغييرات والتحويرات الاساسية كثيرة في كتاب نشوء الامم ، - الذي كان يعتبره انطون سعادة ، ولا يزال يعتبره مريدوه - بمثابة الأساس العلمي لتعاليمه السياسية .

٣

لقد بذل خلفاء انطون سعادة جهداً كبيراً لتخفيف وطأة

هذه الحقائق التي أظهرتها – عن طريق المقارنة بين طبعتي كتاب زعيمهم « العظيم » . ولجأوا الى ألوان من التأويلات والمغالطات التي تفننوا فيها ، في سبيل الدفاع عنه ، وتنزيهه عما نسب اليه من تغييز الرأي في قضية حدود الوطن السوري .

أنا لا ارى لزوماً لاستعراض تلك التأويلات ومناقشتها . لاني استطيع ان اقدم برهاناً أقوى وأحسم من كل البراهين التي كنت ذكرتها قبلاً : انه برهان مادي ، لا يترك مجالاً للتأويل بوجه من الوجوه ، انه خريطة منشورة في جريدة من جرائد الحزب سنة ١٩٣٩ .

يجد القراء في الصفحة التـــالية صورة زنكوغرافية لعنوان جريدة عربية كانت تصدر في سان باولو ، وتتولى الدعوة الى الحزب السوري القومي بين المغتربين ، في بلاد المهجر : جريدة سورية الجديدة .

يلاحظ ان اصحاب هذه الجريدة رسموا دائرة وراء منتصف العنوان ، وخططوا داخل الدائرة خريطة مختصرة لما يعتبرونه الوطن السوري . وقد كتبوا حول الدائرة سورية للسوريين ، كما كتبوا تحت العنوان شعار الحزب السوري القومي المعلوم : حرية ، واجب ، نظام ، قوة ...

ان نظرة واحدة الى هذه الخريطة المختصرة تكفي للتأكد من ان حدودها تنحصر فيما يسمى سورية الطبيعية ، ولا يشمل العراق ابدا ...

ومما يلفت النظر أن هذه الخريطة كانت تظهر – مصغرة – ،

سورية الجديدة

سورية للسوريين

حرية واجب نظام قوة

الاشتراك | سان باولو، الخميس في 16 نوفمبر 1939 | 244

على رأس كل صحيفة في صحائف الجريدة ، كما يلاحظ ذلك في الصورة الزنكوغرافية التي تزينا الوجه الخفي لقصاصة العنوان .

ولا أراني في حاجة الى القول بان هذه الخريطة المختصرة لا تترك مجالاً للشك في ان الوطن السوري الذي كان يدعو اليه حزب انطون سعادة ، كان ينحصر عند صدور الجريدة المذكورة – اي سنة ١٩٣٩ – في سورية الطبيعية ، ويشمل سورية ولبنان والاردن وفلسطين ، ولكنه لا يشمل العراق .

ومما يرويه البعض ان انطون سعادة ، عندما قرر ادخال العراق في نطاق دعوة حزبه – أراد في بادىء الامر ان يختلق اسماً يجمع القطرين ، ونحت من كلمتي سورية وعراقية ، اسم « سوراقية » . ولكنه لم يلبث أن عدل عن هذه الفكرة ،

ورجحت تسمية العراق باسم « سورية الشرقية » .

ويظهر ان الدافع لهـــذا الترجيح ، كان حرصه على اخفاء التبدل الذي حدث في تفكيره حول حدود « الوطن السوري » .

*

ان كل من يدرس ما كتبه انطون سعادة حول حـــدود الوطن السوري ، – درساً مجرداً عن الآراء القبلانية – يلاحظ انه كان يتكلم عن البيئة الطبيعية دون ان يحددها ، ويحاول ارجاع الامور اليها دون ان يستقصي خصائصها .

وكل شيء يدل على ان مؤسس الحزب السوري القومي لم يستنبط نظرياته السياسية من درس البيئة الطبيعية – كما يدعي ذلك . بل انما تخيل البيئة الطبيعية التي يشير اليها بالشكل الذي يلائم آراءه السياسية .

ان مقارنة تعريفه الاول للوطن السوري مع تعريفه الاخير له ، تظهر هذه الحقيقة الى العيان ، بكل وضوح وجلاء :

فلننعم النظر اولاً في التعريف المسطور في « المبدأ الخامس » من دستور الحزب السوري القومي ، الذي « وضـــع في ٢١ نوفمبر ١٩٣٤ ، وصنف في يناير ١٩٣٧ » – حسب تعبير نشراته الرسمية :

« الوطن السوري هو البيئة الطبيعية التي نشأت فيها الامـــة السورية ، وهي ذات حدود تميزها عن سواها ، تمتد من جبـال طوروس في الشمال الى قنـاة السويس في الجنوب ، شاملة شبه جزيرة سيناء وخليج العقبة ، ومن البحر السوري في الغرب الى

الصحراء في الشرق ، حتى الالتقاء بدجلة ».

يلاحظ ان انطون سعادة حدد الحدود الشرقية هنـــا بقوله « الصحراء حتى الالتقاء بدجلة » . في حين ان الصحراء لا تلتقي بدجلة في اي مكان كان ! لأن الفرات يقـــع في غرب دجلة ، فالصحراء التي يشير اليهـا الزعيم تلتقي بالفرات ، لا بدجلة . فالقول « الصحراء حتى الالتقاء بدجلة» ينطوي على خلط جغرافي غريب ، يخالف « الدقة العلمية » التي يجب أن تلازم البحث والتفكير .

قد يقول قائل : ان هذا الخلط لا بد ان يكون ناتجـاً عن غلط مطبعي أو عن سهو قلم ، ولكن النصوص الصريحة لا تترك مجالاً لمثل هذا التأويل : فان تعبير « الصحراء حتى الالتقـــاء بدجـــلة » يتكرر في كتابات انطون سعاده وخطبه عشرات المرات ، كما انه تكرر في كتابات مريديه ايضاً عدة مرات .

واما التعريف الذي استقر عليه رأي انطون سعادة في آخر الأمر ، فانه يوسع حدود الوطن السوري ، ويجعلها تشمل العراق في الشرق وقبرص في الغرب ، ومع ذلك لا يتخلص من خلط الاوضاع الجغرافية وتشويشها تشويشاً غريباً .

فلنقرأ نص هذا التعريف الجديد :

« الوطن السوري هو البيئة الطبيعية التي نشأت فيها الأمة السورية . وهي ذات حدود جغرافية تميزها عن سواها ، تمتد من جبال طوروس في الشمال الغربي وجبال البختياوي في الشمال الشرقي ، الى قناة السويس والبحر الأحمر في الجنوب ، شاملة

شبه جزيرة سينا وخليج العقبة ، ومن البحر السوري في الغرب شاملة جزيرة قبرص ، الى قوس الصحراء العربية وخليج العجم في الشرق .ويعبر عنها بلفظ عام : الهلال الخصيب ونجمته قبرص»

يلاحظ ان هذا التعريف يختلف عن التعريف الأول اختلافاً كلياً، ولكنه لا ينطبق على الحقائق الجغرافية بوجه من الوجوه :

لأن جبال البختياري تقع – حسب نصوص هـذا التعريف في الشمال الشرقي من الوطن القومي الذي يدعوالية حزب انطون سعاده . واما شرق هذا الوطن فلا يمتد حتى الجبال ، بل يتحدد بـ « قوس الصحراء العربية » و « خليج العجم » . اذن فهويشمل الجزء الشمالي من العراق ، دون أقسامه الوسطية والجنوبية ،لأن هذه الأقسام تقع – كما هو معـــلوم للجميع – في شرق قوس الصحراء العربية . فاذا حاولنا أن نرسم على الخريطة حدود هذا الوطن – حسب التعريف الآنف الذكر – حصلنـا على شكل غريب ، يشبه بعض الشبه « المنطقـــة الفرنسية » في اتفـاقية سايكس بيكو المشهورة .

يتبين من كل ما سبق : ان انطون سعادة أخذ يتخبط خبط عشواء ، عندما شعر بضرورة توسيع حدود القومية التي يدعو اليها ، فقرر أن يدخل العراق في حدود تلك القومية ، دون ان يفسح مجالاً لدخول البلاد العربية الأخرى .

وفضلاً عن ذلك ، انه خالف أثبت الحقائق الجغرافية ،عندما أراد التمسك بنظريته الاصليـــة في « تأثير البيئة الطبيعية في تكوين القوميات » ، على الرغم من توسيع حدود القومية التي

يقول بها ، شرقاً وغرباً .

اني وصفت هذه القومية بـ « الاعتباطية » لانها وليدة سوانح مؤسس الحزب وأهوائه ، تتوسع وتتقلص ، تبعاً لتلك السوانح دون ان تستند الى أساس من اللغة ، او الجغرافيا، أو التاريخ .

قومية غريبة في بابها : تقفز من سواحل اللاذقية الى جزيرة قبرص ، مع أن سكان تلك الجزيرة لا يفهمون شيئاً من لغة البلاد السورية ، وتتوقف عند الشاطيء الايمن من قناة السويس مع أن سكان طرفي هذا القنال الضيق – مع ما وراءها من بلاد شاسعة – يرتبط بعضهم ببعض بأوثق الروابط التاريخية واللغوية والثقافية ...

ويؤلمني جداً أن ارى بعض الشبان ينخدعون بدعايات الحزب القومي السوري ... ذلك الحزب الذي لا يسلم بان سوريا جزء من الامة العربية ، ويدعو الى الايمان بالقومية المتذبذبة التي اراد أن يختلقها انطون سعادة ، بملاحظات اعتباطية .

تأثير البيئة الطبيعية
في الاحوال البشرية

لقد لاحظت ان نظرية تأثير البيئة الطبيعية في الشؤون البشرية مسيطرة على اذهان الكثيرين من المتنورين في البلاد العربية، سيطرة شديدة. ولذلك رأيت من المفيد ان أبحث هذه النظرية من أساسها، بقطع النظر عن الشكل الذي أضفاه عليها أنطون سعادة

١

ان تأثير الاحوال الطبيعية في الحياة البشرية والوقائع التاريخية، لفت انظار الكثيرين من المفكرين منذ العصور

القديمة ، وحمل البعض منهم الى المغالاة فيه مغالاة شديدة .

ففي اواسط القرن الثامن عشر استرسل مونتسكيو في بحث هذا التأثير . وزعم أن اخلاق الأمم ونظم الدول ووقائع التاريخ ... تتبع الأحوال الطبيعية وخصائص المناخ ، بوجه عام .

الا أن الابحاث العلمية التي تمت منذ عهد مونتسكيو لم تؤيد هذه الآراء والنظريات . بل برهنت — بعكس ذلك — على أن العوامل الطبيعية تحدد الامكانيات بعض التحديد ، ولكنها لا تحتم الأحداث بصورة قطعية . كما اثبتت ان تأثير الطبيعة في الامور البشرية يكون قوياً عند الأقوام البدائية ، ولكنه يضعف عند الامم المتمدينة ، ويزداد ضعفاً كلما تقدمت الامم في طريق الحضارة .

وذلك لأن الانسان لا يبقى جامداً امام تأثيرات الطبيعة ، بل يسعى الى مغالبة تلك التأثيرات ، فانه ينفعل ويتأثر من الطبيعة من ناحية ، ولكنه يقاومها ويؤثر فيها من ناحية اخرى. إنه يسعى على الدوام للتخلص من سيطرتها بصور شتى . واذا لم يستطع التخلص منها تماماً ، فهو يتوصل الى تخفيف وطأتها الى حد كبير . حتى انه ينجح في تسخير الكثير من قواها لخدمة مصالحه ، بأساليب مختلفة .

ولا نخطيء — والحالة هذه — اذا اعتبرنا تاريخ الحضارة بمثابة قصة كفاح الانسان ضد الطبيعة . وفي الحقيقة ان صفحات ذلك التاريخ ، تقص علينا مناقب انتصار البشر على الطبيعة في

مختلف الميادين ، وتطلعنا على مراحل تقدم الانسان في سبيل استخدام القوى الطبيعية لتطمين حاجاته المادية والمعنوية .

ولهذه الأسباب كلها ، نستطيع ان نقول : ان الذين يزعمون بان الشؤون البشرية تتبع احوال البيئة الطبيعية تبعية شديدة ، يخطئون خطأ عظيماً .

٢

فلننعم النظر في أقوى الأمثلة التي تخطر على البال لأظهار تأثير الاحوال الطبيعية في الشؤون البشرية .

اني اعتقد ان بريطانيا العظمى من أحسن الأمثلة وأبرزها في هذا المضمار. لانها تكوّن بيئة طبيعية صريحة الحدود وواضحة المعالم . فانها منفصلة عن القارة الاوروبية انفصالاً تاماً . فلا شك في ان تأثير الأحوال الطبيعية في الأحوال البشرية يجب ان يظهر في مثل هذه البيئة بأجلى المظاهر واوضح الاشكال .

من المعلوم ان بريطانيا العظمى ، هي اقوى الدول البحرية في العالم ، بعد الولايات المتحدة الاميركية . وكانت الى وقت قريب اقوى الدول البحرية على الاطلاق . وهي كذلك في ميادين الصناعة والتجارة . كما انها اعظم الدول الاستعمارية التي عرفها التاريخ ، منذ أقدم الأزمنة الى الآن : والشمس لا تغيب الى الان عن ممتلكاتها المنبثة في جميع القارات ومختلف البحار .

ان هذه الاحوال البشرية، تبدو في الوهلة الاولى — مرتبطة ارتباطاً تاماً بالأحوال الطبيعية : جزيرة كبيرة ، توفر فيها

كل ما يلزم من الشروط الطبيعية لازدهار الملاحة والتجـــارة والصناعة . مساحتها تناهز تسعة امثال مساحـة جزيرة صقلية ، وتقرب من سبعة أمثال مساحة هولندا . سواحلهـــا كثيرة التعاريج . وبين هذه التعاريج عدد كبير من الخلجان الطويلة والعميقة ، معظمها في حالة موانيء طبيعية ، بعضها على بحر الشمال وبعضها على بحر المانش ، وبعضها على الاوقيانوس الاطلسي الفسيح . ويفصل هذه الجزيرة الكبيرة عن القـارة الاوربية مضيق كاليه العريض ، الذي يتسع لحركات اكبر الاساطيل التجارية والحربية .

وآثار المد والجزر تظهر على شواطيء هذه الجزيرة وخلجانها كل يوم ظهوراً بارزاً . والمد يرفع مستوى المياه في انهارهـــا ارتفاعاً محسوساً ، يحوّلها خلال ساعات عديدة من كل يوم الى خلجان عميقة ، تساعد على تغلغل السفن في داخـــل البلاد ، الى مسافات كبيرة .

وفضلاً عن ذلك كلـه ، فان طبقاتهـا الارضية غنية بفلذات الفحم والحديد ، مما يسهل تحويل الحديد الى الصلب بكلفة قليلة . ومن المعلوم ان الصلب من اهم المواد الضرورية لصنع المكائن والسفن على اختلاف انواعها ، والفحم الحجري من اهم الوقود الذي يحرك المكائن البخارية في المصانع ، والسكك الحديدية ، والمراكب البحرية .

وخلاصة القول : ان الطبيعة قد زوّدت بريطانيـا العظمى بكل الشروط التي تساعد على قيام دولة قوية في ميادين الصناعة والتجارة والملاحة ، ولا حاجة الى القول بان القوة في هذه الميادين

تدفع الى الاستعمار ما وراء البحار ، وتضمن النجـــاح فيه الى اقصى حدود الامكان .

أمام هذه الحقائق التي سردناها آنفاً ، يميل الذهن – بطبيعة الحال – الى الحكم بان السبب الأساسي لتقدم بريطانيا العظمى في هذه الميادين ، انما يرجع الى هذه الميزات الطبيعية التي تتمتع بها هذه الجزيرة الكبيرة .

٣

ولكن شيئاً من التـــأمل في وقائع التاريخ ، يكفي للتشكيك في صحة هذا الحكم الذي يبدو – في الوهلة الاولى – من الامور التي لا مجال للشك في صحتها .

ذلك لأن بريطانيا العظمى لم تصبح دولة بحرية – على الرغم من توفر جميع هذه الشروط الطبيعية – الا في القرون الاخيرة منذ مدة تقل عن اربعة قرون .

كما انها لم تحرز مكانة تذكر في ميدان الصناعة ، الا بعد ذلك بمدة تناهز القرنين .

واما فلذات الحديد والفحم الحجري التي تزخر بها هـــذه الجزيرة الكبيرة ، فلم تلعب دوراً يستحق الذكر في حيـــاتها الاقتصادية والاجتماعية ، الا منذ مدة لا تزيد كثيراً على القرن ونصف القرن .

نعم ، ان بريطانيا العظمى لم تدخل في عداد الدول البحرية الا في القرن السابع عشر . واما سيطرتها على البحار فلم تبدأ الا

في اواسط القرن الثامن عشر .

اذا استعرضنا الحروب البحرية التي سجلها التـــاريخ منذ القرون الاولى ، لا نصادف بينها أي ذكر لبريطانيا العظمى ، الا في القرون الاخيرة .

واذا تصفحنا تاريخ الاستعمار الاوروبي منذ نشأته ، لا نجد فيه اسم بريطانيا العظمى الا في وقت متأخر نسبياً .

فان الاسبان والبرتغاليين ، والهولنديين ، وحتى الفرنسيين قد سبقوا البريطانيين في هذه الميادين .

هذه حقيقة هامة ، يجب ان لا تغرب عن البال في هـــذا المضمار : ان بريطانيا العظمى كانت من البلاد الزراعية البحتـة حتى القرن السابع عشر . كان سكانها يشتغلون بفلاحة الارض وتربية الابقار والاغنام . كانوا ينتجون من القمح ما يزيد على حاجتهم ، فيصدرونه الى اسبانيا . وكانوا يحصلون عـــلى كمية كبيرة من الصوف ، يبيعونه الى الهولنديين .

ولكنهم كانوا محرومين من معامل تنسج لهم ولو قسماً من هذا الصوف ، فـكانوا يستوردون الأقمشة التي يحتاجون اليها من هولندا (ومن الثابت في التاريخ : أن اول معمل لنســـج الصوف في انجلترة ، قد انشيء سنة ١٥٨٩ ، عـــلى يد بعض اللاجئين) .

وفضلاً عن ذلك كله ، فان نقل الصوف من بريطانيـا الى هولندا ، والأقمشة من هولندا الى بريطانيا ما كان يتم على يـد تجار من البريطانيين وبواسطة سفن بريطانية ، ولكنه كان يـتم

على يد تجار من الهولنديين ، وبواسطة سفن هولندية .

وخلاصة القول : اننا اذا رجعنا بانظارنا الى اوائل القرن السابع عشر – الى سنة ١٦٠٠ مثلاً – وجدنا ان بريطانيا العظمى – التي اعتدنا ان نقول عنها « ان الشمس لا تغيب عن ممتلكاتها » – ما كانت تملك شبراً من الارض خارج اوروبا ، كما انها كانت محرومة من معامل تكفي لاكساء سكانها ، ومن اساطيل تكفل المناقلات التجارية بينها وبين البلاد الاوروبية القريبة منها ، فضلاً عن البلاد النائية ، ما وراء البحار والقارات .

●

ان الحقائق التي ذكرتها هنا ، قد تبدو في منتهى الغرابة لأذهان الذين تعودوا « ان يقيسوا الماضي على الحال » غافلين عن « تبدل الاحوال في الامم والأجيال بتبدل الأعصار ومرور الايام » – حسب تعبير ابن خلدون البليغ – ولكنها حقائق ثابتة ، لا مجال لانكارها .

ولعل ما كتبه « الورفالتر راليج » – في اوائل القرن السابع عشر – ، في صدد المقارنة بين بريطانيا وبين هولندا ، اوضح وأقطع دليل على ما أقول :

« ان البحرية البريطانية لا يمكن ان تضاهي بحرية الهولنديين . لقد اصبحت هولندا الآن ، – مثل صور في العصور القديمة ، ومثل البندقية في العصور الحديثة – مخزناً لبضائع لا تحصى . ان ما يستهلكه الهولنديون من تلك البضائع يكاد يبلغ الواحد في المائة ...

« انهم يأتون للمتاجرة معنا كل سنة بخمسمائة بل ستمائة سفينة، لكن ما نرسله نحن الى بلادهم يكاد يبلغ الثلاثين أو الاربعين سفينة ...

« ان السفن التي يملكها الهولنديون ، يعادل مجموع السفن التي تملكها جميع الدول المسيحية الأخرى ...

« انهم ينشئون كل سنة نحو الف سفينة . مع انه لا توجد في بلادهم شجرة واحدة، كما ان مجموع ما تنتجه تلك البلاد لا تكفي لتحميل مائة سفينة ... »

ان الرجل الذي كتب هذه الأسطر ، كان من كبار خبراء الشؤون البحرية في ذلك العهد . وكان في طليعة البريطانيين الذين بذلوا اقصى الجهود لتوجيه انظار مواطنيهم نحو الشؤون البحرية وحمل حكومتهم على انشاء الاساطيل ...

فما كتبه في هذا المضمار يكتسب أهمية خاصة، بهذا الاعتبار.

٤

اذن نحن أمام حقائق هامة جداً :

ان الملاحة والصناعة والتجارة ، في أوائل القرن السابع عشر كانت في منتهى الضآلة في بريطانيا العظمى – على الرغم من توفر جميع الشروط الطبيعية التي تساعد على ازدهارها – ، ولكنها كانت في غاية الازدهار في هولندا ، – على الرغم من نقص الشروط الطبيعية فيها .

وبتعبير اقصر : كانت هولندا أرقى البلاد في ميادين الصناعة

والتجارة والملاحة ، — على الرغم من بخل الطبيعة نحوها — ، في حين ان بريطانيا العظمى ، كانت متخلفة جداً في هذه الميادين — على الرغم من سخاء الطبيعة لها .

ولتكوين فكرة أوضح عن وضع هولندا في هذا المضمار ، يجدر بنا ان نتذكر الكلمة الشائعة بين اهاليها :

« ان الله خلق البحار . أما الشواطيء ، فنحن صنعناها ! »

●

أعتقد ان هذه الحقائق تكفي لاظهار الخطأ العظيم الذي يقع فيه الكتاب الذين يغالون في تقدير مبلغ تأثير الطبيعة في البشر ، فيزعمون ان البيئة من اهم العوامل التي تسير الشؤون البشرية .

٥

ومما تجدر الاشارة اليه : ان البحر الذي يفصل بريطانيا العظمى عن القارة الاوروبية لم يحمها من غارات الاقوام البربرية ، الا بعد ان تكونت فيها امة متماسكة ، تشعر بشخصيتهـــا ، ودولة قوية تدافع عن بلادها . وقد سبق ان استولى عليها ، — في تواريخ مختلفة — الرومان ، والآنجل والسكسون ، والبرتون ، والنورمان ... واثروا فيها تأثيراً عميقاً ، ولا نغالي اذا قلنا: انهم خلقوها خلقاً جديد. ويجب ان لا يغرب عن البال ، ان تنظيمات الدولة الاساسية في بريطانيا بـــدأت بالغزو الروماني . والديانة المسيحية لم تأت اليها وتنتشر فيها الا بعد هذا الغزو. كما ان لغة بريطانيا الحالية اتتها مع الانجل والسكسون ،

وآخر تشكيلاتها الحكومية قامت على يد النورمان . ومن المعلوم ان الرومان ، أتوا من جنوب اوروبا ، والانجل والسكسون ، نشأوا في غابات جرمانيا ، في اواسط اوروبا . والنورمان جاءوا من البلاد الشمالية ...

ان الاحوال التي نشاهدها الان في الامة البريطانية ، انما نتجت عن تلاحق وتفاعل وتمازج تأثيرات هذه الاقوام المختلفة مع سكانها القدماء .

فان هذه الاقوام المختلفة ، حملت الى بريطانيا تقاليدها ومعتقداتها ولغاتها الخاصة التي كانت قد تكوّنت في بيئات طبيعية مختلفة ، وصارت تتفاعل ، تتنازع وتمازج ، في هذه البيئة الجديدة .

يظهر من ذلك كله ، ان تعليل خصائص الامة البريطانية بتأثير البيئة الطبيعية وحدها ، يكون تعليلاً سطحياً ، يخفي عن الانظار كثيراً من العوامل الاجتماعية والتاريخية الحقيقية .

ان البيئة الطبيعية لم تكن العامل الوحيد ، ولا العامل الرئيسي ، في تكوين الامة البريطانية .

٦

أعتقد ان هذه الحقائق التي توصلنا اليها ، بالنظرات التأملية التي القيناها على تاريخ بريطانيا وأحوال البريطانيين ، تغني عن البحث في امثلة أخرى .

لان ، مما لا مجال للشك فيه ان البيئات الطبيعية التي تكون

أقل تحديداً وانعزالاً من بيئة بريطانيا العظمى ، تكون – في الوقت نفسه – اضعف اثراً في الامـــور البشرية ، وأقـــل سيطرة عليها .

فاذا القينا نظرة سريعة – مثلاً – على أحوال فرنسا – التي هي أقرب البلاد الى بريطانيا العظمى ، من الوجهة الجغرافية – وجدنا انها تتألف من بيئات ومناطق طبيعية عـديدة ومختلفة ، لم تجتمع تحت حكم واحد ، فلم تصبح وطناً موحداً لامة واحدة ، الا من جراء سلسلة طويلة من الوقائـــع الحربية والسياسية والتطورات الاجتماعية .

لقد بحث وكتب عـدد كبير من المفكرين والمؤرخين في نشوء فرنسا ، وفي المراحل التي قطعتها الى حين وصولهـــا الى وحدتها الحالية . انهم استقصوا احوال الأقوام التي عاشت فوق أراضي فرنسا الحالية ، في مختلف الادوار من التاريخ ، وتتبعوا الوقائع والتفاعلات التي حدثت بين تلك الأقوام بكل تفصيل .

فقد اختلف الباحثون – فيما بينهم – في تعيين « الاقوام » التي كانت أقوى وأعمق تأثيراً في تكوين الامة الفرنسية ، وفي تحديد « الوقائع » التي لعبت أهم الادوار في تحويل وتوجيـــه « تيار التاريخ » في فرنسا . ومع ذلك فقد اتفقت كلمة الجميع في أمر واحد ، وهو : ان فرنسا تكوّنت بفضل سلسلة طويلة من الوقائع الحربية ، والاعمال السياسية .

ولم يحاول أحد منهم تعليل هـــذه الامور بخصائص البيئة الطبيعية . حتى انهم لم يذكروا البيئة الطبيعية الا للاشارة الى

تنوعها ، وللاشادة بالقوة التي اكتسبتها قرنا من هذا التنوع ، الذي زاد في امكانياتها زيادة كبيرة .

●

ان كل الابحاث توصلنا الى الحقائق التالية :

ما من أمة يمكن أن تعتبر وليدة بيئة طبيعية واحدة .

وقلما انحصرت حياة امة من الامم في نطاق بيئة طبيعية معينة.

وكثيراً ما غيرت الاقوام البيئـــة الطبيعية التي كانت تعيش فيها .

وكثيراً ما جمعت ومزجت البيئة الواحدة عـدداً غير قليل من الاقوام التي تسربت اليها من مختلف البيئـــات ، بشق الاساليب ، في مختلف الازمان والعصور .

وجميع الامم التي لعبت دوراً هاماً في التاريخ ، انتشرت على بيئات طبيعية عديدة ومتنوعة .

ونستطيع ان نؤكد على ان الامـة ، كلما كانت عظيمة ، تنوعت وتعددت البيئات الطبيعية التي اصبحت وطنـــاً لها .. ومسرحاً لنشاطها .

اعتقد ان هذه الحقائق لا تترك مجـالاً للشك في خطل رأي الذين يزعمون ، ان الامة وليدة البيئة الطبيعية ، فينكرون وجود الامة العربية ووحدتها ، بحجة تنوع البيئات الطبيعية في العالم العربي .

obeikandl.com

نظرات
الى
تاريخ الأمة العربية

obeikandl.com

obeikandl.com

١

اني كنت تكلمت – في محاضرة القيتها في نادي المثنى ببغداد – قبل نحو ربع قرن – ، عن « الايمان القومي » بوجه عام ، وعن ضعفه في بلادنا بوجه خاص وقلت :

« اما اسباب هذا الضعف وعوامله ، فهي كثيرة جداً . غير ان أهمها يعود – في نظري – الى سوء نظرنا الى تاريخ الامة العربية من جهة ، وعدم توسعنا في درس تواريخ نهضات الامم المختلفة من جهة أخرى » .

وشرحت رأيي في هذا المضمار بهذه العبارات :

« من المعلوم ان امجاد الماضي من أهم عوامل الأمل ، ودوافع الايمان بالمستقبل ، وذلك لأن المرء عندما يجد في ماضي امته كثيراً من الصفحات المجيدة ، يزداد ايماناً بامكان استعادة ذلك المجد ، ويشتد اندفاعاً للعمل في هذا السبيل . ولكنه عندما يرى في الماضي كثيراً من الصفحات السوداء يصبح أضعف ايماناً بامكان النهوض ، وأقل اندفاعاً للعمل في هذا السبيل .

« ولا حاجة الى القول انه ما من امة خلا تاريخها من أدوار انحطاط وصحائف سوداء ، وما من أمة استطاعت ان تبقى — طول تاريخها — قوية ناهضة على الدوام . فان تاريخ كل امة من الامم يتألف عادة من أدوار ارتقاء وانحطاط ، ويعرض للانظار تارةً صحائف سوداء وطوراً صحائف بيضاء ، تارةً عهود أمجاد وطوراً عهود نكبات. وعندما يستعرض المرء تلك الادوار وتلك الصحائف ، قد يبقى تحت تأثير المجيدة منها فيزداد ايماناً بامكانيات امته ، وقد يبقى تحت تأثير السوداء منها فيصبح يائساً من مستقبلها .

« اني كثيراً ما صادفت بين الشبان من ينظر الى التاريخ العربي بمثل هذه المناظر السوداء ، ومن يستخرج منه احكاماً تثبط العزائم وتؤدي الى اليأس والقنوط » .

وذكرت أمثلة عديدة على ذلك ، وانتقدت تلك الأمثلة بتفصيل ، ثم قلت :

« ان تاريخنا كثيراً ما يبدو — من بين الكتب التي نتداولها — « تافهاً وهزيلاً » ، بالنسبة الى التواريخ الغربية « الناصعة المجيدة » ولكن السبب في ذلك لم يكن تفاهة تاريخنا نفسه ، بل هو رداءة الكتب التي تعرض لنا ذلك التاريخ . فان الكتب التي نقرأها عادة عن تواريخ الغربيين مكتوبة بنظرة علمية ، وخطة تربوية ، ونزعة قومية ، في وقت واحد . على حين ان الكتب التي نقرأها عن تاريخنا بعيدة وخالية من النظرات العلمية والخطط التربوية ، والنزعات القومية في وقت واحد » .

وبعد ذكر الأمثلة ، ختمت البحث المذكور بقولي :

« ان اول الواجبات التي يتحتم علينا القيام بها – لتقوية الايمان القومي – هو كتابة تاريخنا على نمط جديد ، بعقلية غربية ونزعة قومية » .

٢

والان – بعد مرور هذه السنين الطوال على تاريخ القاء تلك المحاضرة ، أرى أننا لم نقطع شوطاً كبيراً في هذا المضمار .

فالمكتبة العربية لا تزال محرومة من مؤلفات تاريخية تستجمع الشروط التي ذكرتها آنفاً .

في الواقع ، قد صدرت في بعض الكتب وبعض المجلات عدة أبحاث تاريخية ، لا تخلو من مظهر الجدة . ولكنها لا تزال بعيدة كل البعد عن المناحي العلمية الحقيقية ، ومجردة تجرداً تاماً من النظرات الاجتماعية الشاملة .

وبينها ... ما ينم عن نزعة شعوبية جديدة، تميل الى استصغار شأن الامة العربية في كل شيء .

وبينها ، ما يدل على روح تشاؤمية ، تلون كل شيء بالوان سوداء ...

وبينها .. ما ينم عن التفكير اليائس الذي يعتبر كل النقائص متأصلة في نفوس العرب ، ويزعم انه لا سبيل الى التخلص منها، بوجه من الوجوه .

في الصحائف التالية ، بعض النماذج البليغة لهذه الأنواع من الابحاث التاريخية .

العرب
وغريزة الاحساس بالمستقبل

١

نشرت مجلة الثقافة مقالة بقلم الدكتور حسين مؤنس ، تحت عنوان « مستقبل العرب » .

تبدأ المقالة بوصف حـــالة البلاد العربية والدول العربية من حيث التفكير بالمستقبل والعمل للمستقبل ، فتقول :

« الدوائر السياسية في بلاد العرب مشغولة بأمر المستقبل : كل دولة تفكر في أمر غدها ، وتدرس الاوضـــاع السياسية العامة لتعرف أي طريق تسلك ، وتقرر من الآن الموقف الذي ستتخذه إذا وقعت الحرب في الغد أو بعد الغد . والجـــامعة العربية تنظر في موقف العرب جملة ، وتدرس علاقاتهم بهـذه الدولة أو تلك ، لتوجـــه سياسة العرب جميعاً وجهة عربية ، فمجالس تجتمع وتنفضّ ، ولجان تنعقد وتنتثر ، وتقارير تكتب

وتقرأ وتدرس ، وبيانات تعطى أو تطوى ، وخطـــابات تلقى وتذاع ، وتصريحات تتفرق ذات اليمين وذات الشمال .. »

« وفيما بين ذلك كلـه تكتب صحف العرب في الموضوع ، فلا تفتح صحيفة إلا قرأت فيها أن العرب ينبغي لهم أن يصنعوا كيت وكيت ، ويفعلوا كذا وكذا ، والصحفيون يهرعون إلى الكبار والزعمـــاء واولي الحل والعقد يستفتون ويسألون ويستجوبون ، وفي كل يوم تظهر الصحف حاملة ثروة ضخمة من الكلام والآراء .

« وما نتيجة ذلك كله ؟ لا شيء ... »

« لم تقرر دولة عربية موقفها في شيء من الوضوح ، ولم تتخذ واحدة منها موقفاً تستطيع تحديده ، ولم توفق الجامعة العربية إلى توجيه العرب وجهة واحدة . كل شيء يجري وحي الساعة والمصادفات : في مسألة كوريا وقف العرب مواقف متعددة ، وفي مسألة الصين خرج العراق ولبنان عن اجماع العرب » .

*

إلى هنا ، وصف الكاتب حالة السياسة العربية وصفـــاً لا غبار عليه .

ولكنه بعد ذلك زعم بان الحالة لن تتغير ، لأنهـــا نتيجة طبيعية للنفسية العربية ، وان هذه النفسية محرومة من الاحساس بالمستقبل ، فلا يمكن أن تكتسب هـــذا الاحساس ، لأن المسألة هنا « مسألة طبع وتكوين ، وليست مسألة يقظة أو غفلة » .

وذلك كله يعني : ان هذه الحالة ستستمر على مر الايام مهما فعلنا ، لأننا لا نستطيع أن نغير طبائع الناس ...

هذا هو الدرس الذي يستخرجه الكاتب من أبحاثه التاريخية ، وهذه هي النتيجة التي ينتهي اليها من تأملاته الفلسفية ...

٢

ولكي لا يتوهم القارىء باني اغالي في تقييم هذا الرأي ، أنقل فيما يلي أهم الفقرات الواردة في المقالة حول هذه القضية .

يقول الكاتب عقب الكلمات التي نقلتها آنفاً :

« وأحب ان اريح القارىء من عناء هذا الموضوع واؤكد من الآن ان العرب لن يتخذوا قراراً لا فرادى ولا جماعة : ولن تحدد دولة منهم موقفها ، وانما ستجيء الحرب وستجد كل دولة نفسها في مكان ما ، حسب ما تمليه الظروف ، وحسب ما تقرره الدول الكبرى ... بالضبط كما حدث امس واول امس ، وكما جرى في تاريخ العرب الطويل .. »

« ولست أقول هذا الكلام رجماً بالغيب ولا شقشقة كتابية . وانما اقوله على حقيقة مقررة من حقائق النفس العربية والشرقية عامة ، وهي : ان الاحساس بالمستقبل غير موجود في هذه النفس ، ولفظ الغد لا يعني في حسابها شيئاً ، انما الشرقي رجل يعيش من يوم ليوم ، يشغله أبسط حاجات يومه عن اكبر حاجات غده ، ويشغله طعام الساعة عن مئونة الساعة التي

تليها .

« ولكي اوضح هذه الحقيقة اقول : إن الاحساس بالمستقبل ملكة خاصة توجد مركبة في نفوس بعض أجناس البشر ولا توجد عند غيرها ، وتتربى وتنمو عند بعضها ، ولا تنمو عند بعضها الآخر – والمراد بها ذلك الاحساس الغريزي العميق الذي يحفز الانسان على التفكير في امر الغد والاهتمام بشؤونه والتدبير له . وهي ملكة تلاحظها عند الغربيين فرادى وجماعات . . . ولكنا لا نجدها عند العرب وعند الشرقيين . . »

ثم يحاول الدكتور تعليل هذه الحالة ، وتبيين أسباب وجود هذا الأحساس في الغرب وفقدانه عند العرب – بأحوال البيئات التي نشأوا فيها . وبعد ذلك يسرد سلسلة من الوقائع التاريخية التي يعتبرها دالة على عدم وجود الاحساس بالغد عند العرب ، (سنعود الى بحث هذه التعليلات والاستشهادات فيما بعد) وينتهي من كل ذلك الى الكلمات التالية :

« وعسى من يقول : كان هذا في الماضي ، أما اليوم فقد افاق العرب واستيقظوا . وذلك وهم شديد . فلا زلنا كما كنا لا نفكر الى ابعد من انوفنا ، واحداث السنوات الماضية تنطق بأجلى بيان ، وذلك لأن المسألة هنا مسألة طبع وتكوين ، وليست مسألة يقظة وغفلة ، ولن نستطيع مهما فعلنا ان نغير طبائع الناس » .

وبعد هذا الحكم القاطع البتار ، يقول الكاتب :

« أتحب ان تعرف كيف يكون موقف امتنا إذا جد الجد

ووقعت الكارثة ؟ إذاً فسل اولئك الذين وهبهم الله احساس الغد والاهتمام بأمره . سل اولئك المقيمين في لندن وموسكو وواشنطن . هؤلاء هم الذين يعرفون . اما نحن، فهمّنا يوم ، يوم مما يعدون أو مما لا يعدون ، يوم والسلام » .

*

أفلا يعني ذلك : من العبث ان نسعى لمكافحة هذه النزعة ، ولا فائدة من السعي وراء إيقاظ العرب من هذه الغفلة ، ودعوتهم إلى الاهتمام بالغد ، لأن هذه من الطبائع المركبة في نفوس العرب ، وليس في الامكان تغيير طبائع الناس !..

اني لا ادعو قط الى تجاهل نقائصنا ، لا في الحال ولا في الماضي ، وبعكس ذلك أدعو الى البحث عن هذه النقائص ، والسعي وراء ازالتها من نفوسنا .

ولكني أعترض على كل من يذهب الى ان هذه الاحوال لا يمكن ان تتغير ، ويطلع علينا بنظرية تنتهي الى تثبيط الهمم والعزائم ، وتوقيف جهود الاصلاح ... وتكون بمثابة الدعوة الى الاستسلام الى الاحوال الراهنة ، بحجة انها من « مقدرات الطبيعة والتاريخ » التي لا تغلب .

إذا سلمنا بهذه النظرية — وبهذه الآراء — وجب علينا ان نستسلم الى المقدرات التي رسمتها لنا الطبيعة والتاريخ . ونكف عن السعي وراء إيقاظ العرب في هذا المضمار ، ودعوتهم الى التفكير بامور الغد ، وعن مخالفة ارادة الله التي وهبت الغرب

غريزة الاحساس بالغد والاهتمام بأمره ، وحرمتنا نحن العرب من تلك الغريزة .

٣

يظهر من كل ما تقدم اننا أمام مسألة خطيرة النتائج جداً ، فلا يجوز لنا ان نمر بها مرور الكرام - بل يجب علينا ان نجعلها موضوع بحث جدي وعميق ، لنتأكد من صحتها أو عدم صحتها .

ولذلك رأيت ان أبحث :

اولاً : - هل للامم طبائع ثابتة لا تتغير ؟

ثانياً : - هل ظلت الامة العربية طوال تاريخها ، محرومة من غريزة الاحساس بالغد حقيقة ؟

ثالثاً : - هل ان الفرق بين الغرب والعرب - من حيث الاحساس بالغد أو عدم الاحساس به - نتيجة طبيعية للبيئات التي نشأ وعاش فيها كل فريق ، منذ القدم ؟

اني سأبحث هذه القضايا ، بحثاً علمياً بحتاً ، مجرداً عن الآراء القبلانية ، ودون ان اترك مجالاً لتأثير العاطفة في الامر .

●

أولاً : - هل للامم طبائع ثابتة لا تتغير ؟

ان نتائج الابحاث العلمية التي حامت حول هذه المسألة ، في مختلف البلاد الغربية ، انتهت الى انكار وجود طبائع ثابتة في الامم .

اني كنت فصلت هذه الآراء في المحاضرة التي أشرت اليها ،

مستشهداً باقوال أحدث واشهر علماء الاجتماع ، وبحاث التاريخ .

أنقل فيما يلي بعض تلك الأقوال :

قال الباحث الاجتماعي المعروف كولا جانتي : « أنا اسلم بوجود بعض الأوصاف النفسية الخاصة ، في بعض الافراد والجماعات ، غير اني أنكر قول الذين يزعمون ان هذه الاوصاف تكون ملكاً خاصاً - أو ميزة فطرية خاصة - لجنس أو قوم أو امة . وانكر بوجه خاص رأي الذين يزعمون بان تلك الأوصاف تكون مستقرة في حياة الامم وغير متبدلة . اذ لا شيء ثابت ومستقر في اوصاف الاقوام وامزجتها . واما ما نشاهده الآن من الخصائص عند الاقوام ، فانما هي خصائص الصفحة الحالية وحدها » .

وقد قال المفكر الاجتماعي « تارد » : اننا اذا رجعنا الى ماضي الاقوام التي نراها الآن في اوج العظمة والمجد ، - متصفة بقوة الارادة وشدة الاقدام ، وجدنا انها كانت فقيرة ضعيفة ومحرومة من قوة الاقدام . وبعكس ذلك ، الامم التي نراها الآن في حالة الانحطاط ، فاننا اذا استعرضنا ماضيها ، وجدنا انها كانت مثالاً للبطولة ، وممتازة بروح الاقدام والمغامرة » .

ونفهم من ذلك كله : ان خصال الاقوام وسجاياها تتغير بتغير اطوارها وأحوالها التاريخية .

وقد عبر « جان فينو » عن هذه الحقيقة بهذا القول البليغ :

« ان مثل من يبحث عن الاستقرار في نفسيات الأقوام كمثل من يزعم ان الدوائر التي تحدث على سطح الماء عند القاء

حجر عليها تحافظ على شكلها الى الابد » .

وأنا استطيع ان اقول - استناداً الى أقوال هؤلاء وأبحاثهم - مع اقوال وابحاث الكثيرين امثالهم - :

إنا ولو فرضنا وسلمنا بان العرب كانوا محرومين من غريزة الاحساس بالغد في الماضي ، لا يجوز أن نقول - بناء على ذلك - انهم سيبقون محرومين منها في المستقبل ايضاً .

وبعد الوصول الى هـــذه النتيجة ، يجدر بنا ان نتساءل : هل يشهد تاريخ العرب حقيقة على حرمانهم من غريزة الاحساس بالغد ؟

ان الدكتور حسين مؤنس ، يدعي ذلك ، مستشهـــداً بالتاريخ ، ويقدّم على شواهده التاريخية قصة غريبة اذ يقول :

« وعندنا قصة لطيفة تمثل نظرة الشرقي للمستقبـــل أصدق تمثيل : قصة شائعة ، يعرفها كل الناس ، تتوافر عـــلى شفاه المشارقة على انها جماع فلسفة الحياة ، ويرويها الغربيون عنا على انها جماع الغفلة عن سر البقاء . هي قصة ذلك الاسكاف الذي أتاه رجل ينعل بخصفه . فنادى زوجه وسألها : «هل بقي لدينا شيء ؟» فقالت : « لدينا ما يكفي اليوم وغداً » فنظر الاســـكاف الى الرجل ، وقال له : « اذاً تأتيني بعد غد » . ثم استلقى عـــلى الارض وأرسل بصره يتأمل جمال السماء » ...

والدكتور بعد ذكر هذه القصة - يقول ، على الفور : « وتاريخنا الماضي كله صور متعددة الألوان لهذه القصة » .

انني لا اعرف مدى شيوع هذه القصة ، ولكني أقول بـلا

تردد باني لم اصادف ما يماثلها حتى عند اخمل الخاملين الذين شاهدتهم طول حياتي ، ولم اسمع بمثلها عن اكسل الكسالى الذين يضرب بهم المثل في مختلف البلاد العربية ، ولا أشك في أنها من النكت التي قيلت للمبالغة في الكسل ، ولا أدري اذا كانت من مختلقات الغربيين أو الشرقيين .

ومهما كان الامر ، فاني لا اسلم ، ولا اعتقد ان احداً يستطيع ان يسلم – بان تاريخنا الماضي كله صور متعددة الالوان لهذه القصة كما يدعي الدكتور حسين مؤنس .

فلنستعرض تاريخ العرب ، مبتدئين من عهود قبل الاسلام ومتتبعين العهود التي توالت بعد الاسلام :

هل كان اهل اليمن محرومين من الاحساس بفكرة الغد ، عندما بنوا سد مأرب وعندما فتنوا الصخور ودرّجوا سفوح الجبال ، لجعلها قابلة للزراعة ؟

وهل كان الأنباط – اهل البتراء – لا يفكرون بالغد ، عندما نحتوا المعابد على الجدران الصخرية في وادي موسى ؟

وهل كان الامويون لا يفكرون بغير يومهم – عندما مصّروا الامصار ، وبنوا الكوفة ، وواسط ، والقيروان ؟

وهل كان العباسيون قد حصروا أنظارهم في حاجات اليوم ، دون ان يفكروا في المستقبل ، عندما بنوا القصور والجسور والحصون والقلاع ... في مختلف أنحاء البلاد التي حكموها ؟

وهل الآبار والصهاريج الممدة على طول طريق الحج بين بغداد ودمشق وبين المدينة ومكة ، كانت من آثار قوم لا

يعملون الا ليومهم ، ولا يفكرون ابداً في غدهم ؟

وآثار الري القائمة في الاندلس الى يومنا هذا ، هل يمكن ان تكون من صنع ايدي أناس لا يحسبون حساباً للغد ؟

وزياد ابن ابي سفيان ، هل كان محروماً من غريزة التفكير في الغد ، عندما نقل الى طبرستان خمسين الفاً من اهل البصرة والكوفة ، وبنى هناك قلعة جهينة القائمة الى الان ؟

واسد بن الفرات ، هل كان ممن يحصرون عملهم في اليوم دون أن يفكروا في الغد ، عندما انشأ اسطولاً ، استولى به على صقلية ، والجزر المحيطة بها ؟

اني لا أرى لزوماً الى تطويل سلسلة هذه الامثلة والأسئلة ، فأقول بلا تردد — استناداً الى الامثلة السابقة — : ان كل الاثار العربية المنبثة في البلاد الشاسعة التي حكمها العرب ، تشهد بأعلى صوتها ضد مزاعم الدكتور حسين مؤنس في هذا المضمار ، وتنفي قوله « بان تاريخنا الماضي كله صور متعددة الالوان » اللاسكافي الكسلان ، الذي روي لنا قصته الغريبة في مستهل بحثه هذا .

*

وقبل أن أختم هذا البحث وأنتقل الى ما يليه ، أودّ ان أذكر لكاتب هذا المقال قصة أخرى ، قصة تاريخية ، اتفق على صحتها جميع المؤرخين من غربيين وشرقيين :

عندما أتى جماعات من الغربيين واستولوا على سوريا خلال الحروب الصليبية ، دهشوا من آثار الحضارة التي شاهدوها فيها . ان المدن الشامية وأسواقها بهرت أنظارهم ، بتجارتها المزدهرة ،

وصناعاتها الجميلة ، وحياتها النشطة . واتصال الاوروبيين بالشرق هناك كان من أهم عوامل النهضة التي قامت في أوروبا بعد مدة وجيزة .

هل يستطيع ان يقول الدكتور : ان كل هـــؤلاء التجار والصناع الذين بهروا أنظار الاوروبيين ، وأثاروا فيهم روح الاقتباس والتجديد ، كانوا على شاكلة الاسكاف الذي روى لنا قصته ، وزعم انها تمثل نظرة الشرقي للمستقبل أصدق تمثيل ؟

*

وقد حاول الدكتور أن يبرهن على صحة قوله بذكر عدة وقائع تاريخية . ولكني لم أجد فيها ما يؤيد رأيه بوجـــه من الوجوه .

ولكي أجعل القارىء في موقف يستطيع أن يحكم في القضية ، بعد الاطلاع على جميع تفاصيلها ، أنقل فيما يلي كل ما كتبـــه الاستاذ في هذا المضمار :

وقد قال — عقب قوله « وتاريخنا الماضي كله صور متعددة الالوان لهذه القصة » — ما يلي بحروفه الكاملة :

« قـــد تعودنا ان ننظر ليومنا فحسب ، وان لا تترامى أبصارنا الى ما وراء ما يبدو ماثلاً لاعيننا . »

« ولا يتغير موقف الشرقي من المستقبل مهما تهددته الاخطار. فقد تجد الدولة الاسلامية نفسها وجهاً لوجه أمام عدو لا يخفي مطـــامعه ، ويتحرك العدو للهجوم عليهـــا ، ويـــدوس أطرافها ، فلا يعمد أهل الدولة الى تدبير امر الغـد او النظر في

انقاذ أنفسهم ، بل يكون همهم ما يشغلهم أيام السلم والرخاء . فقد كان المغول على أسابيع من بغداد . وكان رجـــال الدولة العباسية يعرفون تمام المعرفة ان هولاكو سائر اليهم ، وكتب اليهم الرجل نفسه يؤكد ذلك ، وأخذت جيوش التتر تقترب يوماً بعد يوم. فهل تحسب ان رجال الدولة فكروا في ان يعدوا للأمر عدته ، ويوحدوا كلمتهم ولو لبضعة أسابيع حتى يزول الخطر ! بالطبع لا . انما انصرفوا الى التدبيرات والمشاحنات . ووجدها بعضهم فرصة ليثأر من أنداد له أساءوا اليه بالامس ، وبلغ الامر ببعضهم ان فرق معظم الجيش ، ولم يكن للخليفة همّ الا أن يحافظ على أمواله ..

« ثم سقطت بغداد ، وأهلك التتار أهل بغداد ، ولم يبقوا على واحد من المتخاصمين . ونحن نقرأ هـــذه الاخبار ونعجب لاولئك الناس الذين شغلتهم تفاهات اليوم عن متاعب الغـد ، ونعجب من انهم كانوا يحسون الكارثة القادمة ويعرفون ان مصيرهم كلهم الى الهلاك فيها ، ومع هذا لم يصرفهم ذلك العلم عن الاسترسال فيما كان يشغلهم من قبل من بسائط وسخافات . ولكن لا محل للعجب . لان اولئك النـــاس ، كانوا يعيشون في يومهم وحسب ، ولا ينبض في نفوسهم عرق المستقبل ، لانه غير موجود . ومن ثم فقد سار بهم الزمن الى الكارثـــة ، وهم لا يكادون يفعلون شيئاً .

« ومثل ذلك حدث عندما نزل الصليبيون الشام وانشأوا لانفسهم دولاً في بلاد المسلمين . وقسموا انفسهم جماعات يجتـاح

كل منها ما يليه . أتظن ان أهل هذه البلاد تنبهوا الى المصير الاسود الذي كانوا يسيرون اليه ؟ بالطبع لا . ظـــل أصحاب الموصل يكيدون لأصحاب دمشق . وأهـل مصر يدبرون على أهل الشام ، بل يحالفون العدو عليهم . وعندما ظهر عماد الدين زنكي واجتهد في توحيد صفوف المسلمين ، لم يكن لدمشق هم الا ان تناوئه وتدبر عليه وتحالف النصارى ، بما تجده معروضاً أحسن عرض في حياة « اسامة بن منقذ » . ولم يزل امر المسلمين على ذلك والعدو يذلهم ويسقيهم الصاب ، حتى رزقنا الله بصلاح الدين ، فأرغمهم على الوحدة ، واستولى على بلاد المناوئين بحد السيف ، وما كانوا ينظرون اليه الا على أنه عدو لهم ، مع أنه كان يسعى لما فيه صلاح انفسهم .

« ومأساة الاندلس الكبرى ، مرجعها الى انعـــدام ذلك الاحساس . فقد كان من الجلي الواضح لكل انسان في الأندلس ان النصارى لن يهدأ لهم بال ، الا اذا استولوا على بلاد المسلمين كلها ، وأزالوا دينهم ولغتهم . وكانت الأخبـار تتوالى عليهم بسقوط المعاقل وذل المسلمين ، وهوان الاسلام ، وتحـــول المساجد الجامعة الى كنائس. أتظن ان ذلك حفز أمراء الاندلس على السعي في الوحدة والنظر للغد ؟ بالطبع لا ، انما كان همهم مكايدة بعضهم البعض : ابن عباد في أشبيلية يكيد لابن الأفطس في بطليوس . وذو النون في طليطلة يدبر لابن هود في سرقسطة. بل يستسيغ الواحد منهم أن يؤدي الجزية للنصارى ، ولا يستسيغ أن يأتلف مع جاره المسلم . واخذت المعاقل تهوي واحداً في أثر

آخر . فلم يتعظ الناجون ، بل سدروا في غيهم حتى ضاعت الارض كلها. ولم يبق الا جنوب شبه الجزيرة ، يشترك في الدفاع عنه بنو الاحمر وبنو مدين . فما زالوا يتخاصمون ويتدابرون حتى ابتلعهم الطوفان » .

هذه هي الوقائع التاريخية التي استشهد بها الدكتور حسين مؤنس ، للبرهنة على صدق نظريته .

ولكني ألاحظ على هذه الاقوال عدة أمور :

أولاً : — ان الوقائع التي يستشهد بها كلها تعود الى عهد انحطاط الدول العربية وانحلالها ؛ وما يحدث في مثل هذه العهود لا يجوز ان يعمم الى جميع العهود ، ويعتبر من الامور المركبة في طبيعة الامة .

ثانياً : — ان الوقائع التي يستعرضها صاحب النظرية تدل على تغلب نزعة الانانية والاقليمية وانحلال فكرة الوحدة والاتحاد ، ولا تدل على فقدان نزعة التفكير بالغد .

ثالثاً : — ان أمثال هذه الوقائع كثيرة في تواريخ الغربيين أيضاً .

فاذا اعتبرناها دليلاً على فقدان الاحساس بالغد عند العرب ، وجب علينا ان نقول ان هذه الحاسة مفقودة عند الغربيين ايضاً .

فلنلق نظرة عجلى على التاريخ العام ، ونستعرض احوال الامم المختلفة — من هذه الوجهة — من اليونان في القرون القديمة الى الالمان في العصور الحديثة . أفلا نجد فيها كثيراً من الوقائع التي تماثل ما ذكرها واستشهد بها الدكتور حسين مؤنس ، عن

تاريخ العرب ؟

كم قاست اليونان من المنافسات والمخاصمات التي قامت بين اثينا واسبارطة ؟ ألم يسجل التـــاريخ ان معظم اليونانيين كانوا يصفقون للمنتصرين، عندما أخذوا يهدمون أسوار أثينا، ويقضون على سطوتها القضاء المبرم ؟

والرومان ، في أية حالة كانوا ، عندما أخذ البرابرة يهاجمون امبراطوريتهم من عدة جهات ؟ حتى عندما اجتاز هؤلاء الجبال واخذوا يتغلغلون في سهول ايطاليا ، ويزحفون نحو روما ؟

واذا أردنا أمثلة من العهود المعاصرة للوقائع المذكورة : ألم يتنافس ويتخاصم الاوروبيون ايضاً ، خلال الحروب الصليبية ، في بلادهم الاصلية من جهة ، وفي البـــلاد التي كانوا استولوا عليها من جهة أخرى ؟ ألم يتحالف بعضهم مع البعض من امراء المسلمين ، ضد زملائهم وحلفائهم السابقين ؟

واذا انتقلنا الى ازمنة اقرب منا ، أفلا نجد في تاريخ بولونيا امثلة لا تقل فظاعة عن كل الامثلة التي ذكرها لنـا الدكتور في تاريخ العرب ؟ ألا نعرف ان الدييت البولوني صار مسرحاً لافظع المشاحنات الحزبية ، وان هذه المشاحنات ادت الى زوال دولة بولندا ، واقتسام بلادها بين جيرانها الثلاثة ؟

وفي تاريخ اقرب من ذلك ، وفي أمـة اعظم واشهر من تلك ، في تاريخ الأمة الالمانيـــة نفسها ، ألم تحدث منافسات ومدابرات أدت الى إضعاف الامة وعرضتها إلى شتى النكبات ؟ ماذا كان سلوك امراء الألمان، تجاه غزوات نابوليون ؟ ألم يتحالف

بعضهم مع نابوليون ضد غيره من امراء الالمان ؟ ألم يأخذ عدد غير قليل منهم في السعي وراء استرضاء نابوليون وتملقه ، ليحصل على امارة من الأمارات الباقية ما وراء نهر الراين ، تعويضاً عن الامارة التي خسرها ، من جراء تكوين اتحاد الراين ؟

وفي تاريخ أقرب من كل ذلك : مـــاذا كان وضع الدول الالمانية ، في مؤتمر فرنكفورت الذي انعقد بعد وقائع ١٨٤٨ وثوراتها ؟ هل كان ممثلوها أقل اختـــلافاً من الاختلافات التي حدثت في مجالس جامعة الدول العربية ؟

فكيف يجوز لنا ، ــ والحالة هذه ــ أن نعتبر الأمثلة التي ذكرها الدكتور حسين مؤنس دليلاً على حرمـــان العرب من غريزة الاحساس بالغد ، في الوقت الذي يدعي ان هذه الغريزة مركبة في طبيعة الأوروبيين ؟

ان النظرية التي بناها الدكتور تنهار من نفسها ، من هـذه الوجهة أيضاً .

٤

ومـــا يلفت النظر ان الدكتور حسين مؤنس ، لم يكتف بالقول بان غريزة الاحساس بالغـــد مفقودة في نفوس العرب والشرقيين ومتأصلة في نفوس الغربيين .

بل حاول أن يعلل ذلك ، ويبين الأسباب التي أدت الى قيام هذا الفارق العظيم بيننا وبين الغربيين .

انه يزعم ان السبب في ذلك هو اختلاف البيئة :

لقد نشأ الغربيون في بيئة « لا ينال الانسان فيها رزقه الا بعد كد وتعب » ، فالطبيعة هناك بخيلة بخيرها ، فالأرض صخرية عاتية لا تفلح الا بعد جهد طويل .. فلا يستطيع أن يعيش في تلك البيئة « الا الشديد الأيد المكافح المثابر الذي يعرف بالبديهة أن الحياة كفاح وتعب . فاذا لم يعول الانسان على التعب والكفاح فلا حياة له ولا وجود . وقد عملت الطبيعة عملها في أجيالهم بانتظام : فأهلكت الضعفاء والمهملين والعاجزين، ولم تبق الا القوي الصالح للبقاء حقاً . وكل اوروبي نراه انما هو بقية عشرة هلك تسعة منهم في الكفاح الطويل ، فهو واحد بعشرة ، ورث عن الهالكين تجاربهم وتركزت فيه ثمرات كفاحهم ، واستقرت في نفسه عبر مصارعهم ، ومن هنا نبض في قلب الغربي عرق الغد ، وعصب الاحساس به ، وأصبح الواحد منهم يعيش بعيون مفتحة واسعة الى الغد . وأصبح المستقبل في ذاته احساساً غريزياً مركباً في طبعه .

« أما نحن فقد نشأنا في بيئات رخوة لينة ، تجود بخيرها بأقل مجهود . أو بيئات جافية قاحلة ليس فيها من الخير شيء تجود به ، وكلتا البيئتين : لا تدفعان الانسان على التفكير في الغد أو الاحساس به . فاما صاحب البيئة الرخوة فهو في أمن من الغد ، مطمئن الى أن الله يدبر له رزقه كما يدبر طلوع الشمس ؛ واما الثاني فيائس من المستقبل والحاضر والزمان كله ، يعول في حياته على ما يصيبه في ساعته ، فان وجد طعاماً أكل والا طوى نفسه على الجوع ، كما تفعل العظايا والضباب في الصحراء » .

ان هذه النظرية التي يسردها الدكتور باسلوب جـــذاب ، كأنه يروي لنا قصة واقعية ، قد تبدو وجيهة في الوهلة الاولى ، إلا انها تنهار من أساسها ، عندما تتعرض الى أدنى بحث ونقد ، لأن الأمور التي تستند اليها وتتكون منها ، لا تمت الى الحقيقـة والواقع بصلة من الصلات :

أولاً ، ان الاراضي التي عاش عليها ويعيش عليها الاوروبيون لم تكن كلها صخرية ، حتى ولا اكثرها .

ثم ان الدكتور ينسى وجود الغـابات والمراعي الطبيعية في معظم انحاء البلاد الاوروبية ، ومن المعلوم انها سخية جـــداً ، بالمواد الغذائية . ومن المؤكد ان الغابات كانت في الماضي اكثر سعة بكثير مما هي الآن ، كما انه من المؤكد ان أجـــداد الاوروبيين عاشوا بخيرات الغـــابات قبل ان يقدموا على فلاحة الأرض ، ويتغذوا بثمرات الزرع .

وفضلاً عن ذلك ، فانه مما لا يستطيع ان يجادل فيه أحد ان الزراعة في البلاد التي تكثر فيها الامطار أسهل بكثير منها في البلاد التي تحتاج الى إرواء وإسقاء .

ثم ان المعيشة في البوادي ، برعي الاغنام والمواشي ، والتنقل بها من محل الى محل بحثاً عن الكلأ ، تبعاً لمواسم الامطار ... لا تتم بدون كد ولا تعب ، كما يتوهمه صاحب النظرية .

وفي الأخير ، يجب ان لا ننسى هذه الحقيقة التاريخية ايضاً : ان الزراعة نشأت في بلادنا ، قبل أن تنشأ في اوروبا ، كما ان الحضارة — بوجه عام — ازدهرت في بلادنا — قبل أن تزدهر في

البلاد الاوروبية .

إذ من المعلوم ان اقدم الحضارات المعروفة نشأت في وادي الرافدين ووادي النيل ، والحضـــارة في الواديين المذكورين ، ربما لم تسبق كثيراً الحضارات التي نشأت في دلتات الانهر الكبيرة في الهند والصين ، ولكنه من المؤكد أنها سبقت بعصور طويلة جداً ، الحضارات التي نشأت في البلاد الاوروبية .

والأبحاث الاجتماعية ، تعلل هذه الواقعة التاريخية ، بالامور التالية :

ان الأقوام التي تضمن معاشها باقتطاف البذور والاثمار ، أو بصيد الحيوانات ، أو بالزراعـــة البسيطة التي لا تتطلب عملاً غير نبش التراب وبـذر البذور ، ان هـذه الأقوام تعيش في حالة جماعات صغيرة ، ولا تحتاج الى تكتل كبير .

ولكن الأقوام التي تضمن معاشها في دلتات الانهر في البلاد التي تقل فيهـا الامطار ، فتحتاج الزراعة الى أعمـــال الري والاسقاء ، لا يمكن أن تعيش في حالة جماعات صغيرة ، لأن الزراعة والمعيشة في امثال هذه البيئات ، تتطلب بناء السدود لدرء أضرار فيضانات الأنهر ، وشق الجداول والقنوات لايصال المياه الى المزارع . وذلك لا يمكن أن يتم على يد عائلة واحدة ، أو على يد جماعات صغيرة ، تعمل بانفراد ، بل يتطلب تضافر أيدي جماعات كثيرة ، توحد جهودها لأعمال يعود نفعهـــا الى الجميع . ولذلك تضطر الى تكوين جماعات كبيرة . والجماعات الكبيرة تحتاج الى هيئات تنسق أعمالها ، وتوجههـــا الوجهة التي

تضمن وسائل العيش للجميع .

هذا ، هو السبب الأساسي في قيام الدول وازدهار الحضارات، في وادي النيل ، ووادي الرافدين ، قبل سائر انحاء العالم ، في اوروبا وآسيا وافريقيا .

ويلاحظ ان كل ذلك يخالف ما ذهب اليه الدكتور حسين مؤنس ، كل المخالفة .

٥

وقد كتب الدكتور حسين مؤنس عن حرمان العرب من الاحساس بالغد في مقالة أخرى ، نشرها في الثقافة ايضاً تحت عنوان « شرق وغرب » وذكر فيها دليلاً آخر على هـــذا الحرمان ، حيث قال :

« وانه ليس مجرد مصادفة انك تجد الزمان في نحو اللغات السامية ينقسم الى ماض ومضارع فحسب . اما المستقبل فمضارع تضيف اليه السين أو سوف ، وهما في احساس الشرقي يوحيان الى النفس معنى التشكك وعدم اليقين » .

ولكني لا أدري لماذا يوحي المستقبل معنى التشكك وعدم اليقين ، عندما يعبر عنه بالصيغة العربية ولا يوحي ذلك عندما يعبر عنه بالصيغة الفرنسية مثلاً ؟ وما الفرق — من حيث الدلالة المعنوية — بين قولي « سيكتب » — باللغة العربية ، وبين قولي « ايل اكريرا » باللغة الفرنسية ؟

المستقبل في اللغة العربية ، هو مضارع تضيف اليه السين ؟ وماذا

يعني ذلك : أما أستطيع ان اقول : المستقبل في اللغة الفرنسية ، هو مضارع تلحق به الـ « را » ؟

فلنقارن بين الصيغة العربية والصيغة الفرنسية في كلمتين :

يكتب . ... سَ - يكتب

ايل اكري ..... ايل اكري - را

يَقـــول ..... سَ - يقول

ايل دي ..... ايل دي - را

ألا تجد في كلتا الحالتين ، أننا نضيف مقطعـــاً جديداً على المضارع : « سَ » في العربية ، و « را » في الفرنسية ؟

والفرق بين اللغتين - في هذا الامر - لا يخرج عن « ان المقطع الدال على المستقبل يضاف الى أول الكلمة في العربية ، والى آخرها في الافرنسية » .

وكيف يجوز لنا ان نستنتج من هـــذا الاختلاف البسيط حرمان العرب من الاحساس بالغد ؟

ما يقوله علماء الصرف والنحو ؟ ولكن مـــاذا يمنعنا عن الخروج على القول الذي اتفق عليه القدماء ، وعن تدوين قواعد اللغة العربية بطريقة أخرى اكثر تمشياً مع حقائق الامور ؟ أفلا نستطيع أن نقول : ان الفعل ماض ومضارع ومستقبل . والماضي على وزن فَعَلَ ، والمضارع على وزن يَفعَلُ والمستقبل على وزن سَيَفعل ؟

ولذلك استطيع ان أقول ، بلا تردد : ان النظرية التي ذهب اليها الدكتور حسين مؤنس - في هذا المضمار - لا تقوم على اساس

سليم ، من هذه الوجهة ايضاً .

●

انني لم أقصد بانتقاداتي هذه تنزيه امتنا العربية من النواقص والعيوب والعلل والامراض ، لا في حالتهـا الحاضرة ، ولا في ماضيها القريب أو البعيد .

انما أردت البرهنة على خلوهـا من العلل التي توهمها فيهـا الدكتور حسين مؤنس ، نتيجة تشخيص مغلوط ، عندما زعم انها محرومة من غريزة الاحساس بالمستقبل ، ولاسيما عندما ذهب الى ان هذه الحالة نتيجة « طبع وتكوين » .

أنا لا انكر ابداً كثرة عللنا وامراضنـا الاجتماعية . ولا أقول قط بجواز تجاهلها أو بوجوب التستّر عليها . بـل اقول — بعكس ذلك — بوجوب بحثها واظهارها الى العيـان بكل اهتمام ، لاني أعرف ان تشخيص الداء ، هو أول ما يجب عمله للتوصل الى الدواء وضمان الشفاء .

ولكني أعتقد ان هذا البحث يجب ان يجري وفق أساليب علمية سليمة ، لكي يضمن تشخيص العلة الحقيقية ، دون توجيـه الفكر نحو علل وهمية .

●

لو كان الدكتور قـد قال : « اننا لا ننظر الى المستقبل البعيد » ، لما اعترضت عليه أبداً .

ولكني اعترضت عليه بشدة ، عندما رأيته يقول « اننـا لا

نفكر في الغد أبداً » .

وقسوت في الاعتراض عليه اكثر فاكثر ، عندما رأيته يزعم « بأن أجدادنا ايضاً ما كانوا يفكرون في المستقبل .... » لاسيما عندما رأيته يقول: ان هذه « مسألة طبع وتكوين » ، فلا سبيل الى تغييرها ، مهما بذل من جهود .

لاني اعتقد ان « أخطر الامراض واعصاها على العلاج » هي التي تتضاعف بقنوط المريض والطبيب عن امكان الشفاء ...

حـــول
ماضي العرب

١

لقد نشرت مجلة الثقافة — سنة ١٩٥١ — مقالة بقلم الدكتور حسين مؤنس ، تحت عنوان « العرب وماضيهم » .

تتضمن المقالة المذكورة عدة آراء ونظريات غريبـــة ، عن تاريخ العرب والاسلام ، ولعل أغربها ، هي القائلة بان « تاريخ العرب تاريخ متقطع ، محروم من الترابط والانسجام » .

اني أنقل فيما يلي القسم المتعلق بهـــذه النظرية ، لكي اعطي فكرة تامة عما يعنيه كاتب المقالة بقوله هذا :

« ان التاريخ الاسلامي لا يكوّن حبلًا متصلًا . واننا اذ ندرسه لا نجد أنفسنا أمام عصور متوالية ، يرتبط سابقها بلاحقها بروابط طبيعية تطورية حقيقية . وانما نحن أمام عصور متوالية ، منفصل كل منها عن الاخر كل الانفصال . فالعصر الأموي

يختلف من كل ناحية عن العصر الراشدي ، يختلف في نظـــام الحكم في نظام وهيئة المجتمع وتكوينه، ومثله العليا واتجاه الحكم وأهدافه . وعندما ينتقل الأمر الى العباسيين يقف ذلك كله ، ويبدأ عصر جديد من كل ناحية ايضاً . فالخليفة العباسي ليس هو الخليفة الأموي ، ونظم الحكم العباسية تختلف في روحها تماماً عن نظم الحكم الاموية. والمجتمع البغدادي غير المجتمع الأموي ، والمثل العليا للناس في العصر الاول ليست هي المثل العليا لهم في العصر الثاني . حتى الشعب اختلف في نوعه وتكوينه ، وهـذه الاختلافات كلها لم تأت عن تطور طبيعي أو انتقال تاريخي تستطيع تعليله . وانما هي انتقالات فجائية حاسمة ، تضع حداً لكل ما مضى ، وتبدأ عهداً جديداً تماماً . ولو انك اردت ان تدرس العصر العباسي دون ان تلم بالعصر الاموي لاستطعت . لانك في الواقع أمام دولة جديدة أصلاً . وهذا الاتجاه التاريخي الغريب ، هو الذي يجعل مهمة مؤرخ الاسلام اعسر من مهمة من يؤرخ للعصور الوسطى الاوروبية مثلاً. فهناك دول كثيرة متوالية ، وانظمة كثيرة ، يتجه كل منها اتجاهاً خاصاً . ولكن الاساس العام للحكم واحـــد ، وهو يتطور باستمرار تطوراً منتظماً له غاية واحدة . خذ عقود الاقطاع من القرن السادس الميلادي الى الثاني عشر ، تجدها تتطور باستمرار في الصيغ والحدود، ولكنها جميعاً واحدة في الروح والاتجاه والاغراض. خذ تاريخ دولة الكنيسة ، تجد نفسك امام تطور طبيعي ، يبدأ من أساطير انشاء يوحنا بن سمعان المعروف بالرسول بطرس

لكنيسة روما ، ويصل تدريجياً الى دولة البابوية المنظمة القوية في عهد جريجوري السابع . وخذ نشأة المدن وتتبع تطورها تجد نفسك أمام تاريخ متصل منطقي ، وهكذا بينما تتعاقب الدول وتختلف الظواهر العامة وتجري تطورات اخرى داخلية تربط العصر بالعصر والناس بالناس ، وتجعل التاريخ الاوروبي أشبه بنهر متصل المجرى ، قد تختلف المناظر القائمة على شاطئيه ، وقد تعترضه الشلالات والجنادل ، ولكن الماء واحد ، واتجاهه واحد ، ومصبه كذلك واحد ، مهما اختلفت المنابع وموارد الماء .

« وربما كان مرد تلك الظاهرة التاريخية الغريبة الى ان الدولة الاسلامية انتقلت اوائل العصر العباسي من شواطيء البحر الابيض الى آسيا ، واصبحت دولة اسيوية الروح والطابع والاتجاه . والعقلية الاسيوية عقلية جامدة غير تطورية ، لا تعرف التدرج . والتغير فيها لا يتم الا عن طريق الانقلاب او الانفجار . وكل شيء تبدعه العقلية الاسيوية يبقى كما ظهر اول مرة. واذا اردت مثالاً ملموساً لذلك ، فخذ اللغة العربية . فنحن نكتب اليوم بلغة امرىء القيس ، ونستعمل الالفاظ في نفس المعاني التي استعملها فيها ، مع ان بيننا وبينه ستة عشر قرناً . ولا يعزى هذا الى اصرار الناس على المحافظة على لغة القرآن . فكل لغات آسيا على هذا الطراز ، والصينيون اليوم يكتبون لغة كونفوشيوس .

« ولو انك تتبعت تاريخ المسلمين لرأيت ان هذه الظاهرة

تنطبق على كل عصر من عصوره ، ومن العبث أن تبحث عن الروابط والخطوط العامة التي تربط عصراً بسابقه أو بلاحقه، لأن العصر في تاريخ المسلمين اذا انقضى انمحت آثاره كلهـــا وبدأ الناس حياتهم من جديد .

« ونحن اليوم حينما نحاول احياء تراث أجيال المسلمين السالفة انما نحاول ان نصطنع ظاهرة غير طبيعية ، ونحـاول ان نصوغ تاريخنا صياغة اوروبية . فبينما يشعر الانجليزي المعاصر انه متصل تمام الاتصال بالماجنا كارتا والهابياس كوربس ، نشعر نحن شعوراً صادقاً بانه ليست هناك رابطة حقيقية تربطنا ببني أميـــة أو بني العباس .

« ومن هنا فمن الطبيعي ان يكون العرب أقل الناس تأثراً بماضيهم وارتباطاً به . لأن كل جيل من أجيالهم الماضية اختفى من التاريخ ، حاملاً معه كل تراثه تاركاً الميدان لجيـــل آخر يبدأ كل شيء من جديد .

٢

ان هذه النظرة الى تاريـــخ العرب والاسلام — تذكرني بالنظرية التي وضعها بوفون عـــن تكوين الأرض ، في اوائل عهد علم الجيولوجيا : لقد زعم ان الأرض وما عليها من جبال وانهار ونباتات وحيوانات — تعرضت الى انقلابات فجائية حاسمة في عدة ادوار من تاريخها الطويل — وأنه في كل دور من ادوار هذه الانقلابات الفجائية كانت تنقرض مخـلوقات الدور السابق

وتظهر مخلوقات من انواع جديدة ، وأوضاع أرضية وأحوال مناخية جديدة ، تختلف عن السابقة كل الاختلاف . لانه كان لاحظ الفروق العظيمة التي تدل عليها اوضاع الطبقات الأرضية وأنواع المستحاثات النباتية والحيوانية ، ولكنه لم يستطع أن يتصور ان امثال هذه الفروق العظيمة يمكن ان تنشأ من تحولات تدريجية . وعاشت نظريته هذه الى ان قامت أبحاث شارل لا بل الجيولوجية الخاصة من ناحية ، ونظريات داروين العلمية العامة من ناحية اخرى، وبرهنت على ان كل هذه التحولات الجيولوجية انما حدثت بتطور تدريجي ، دون ان يزول عالم ويخلق عالم جديد ...

اذا سلمنا برأي الدكتور حسين مؤنس في هذا المضمار وجب علينا ان نقول : إن الأحوال سارت في التاريخ العربي والاسلامي على اساس الانقلابات الفجائية الكاملة - وفقاً للنظرية الجيولوجية القديمة ، واما في التاريخ الأوروبي فقد سارت الامور — وفقاً للنظرية الجيولوجية الحالية !..

ويلوح لي ان مرد الخطأ الذي وقع فيه الدكتور في هذا الأمر ، هو خلطه بين التاريخ نفسه وبين كتب التاريخ التي تبحث فيه :

انه يدرس التاريخ الغربي — كما ندرسه كلنا — من كتب لخصت أبحاث وجهود عدة أجيال من المؤرخين . وهؤلاء ، درسوا الوقائع التاريخية ووثائقها بتعمق وتوسع وتأمل ، واستقرأوا الجزئيات ليتوصلوا الى الكليات ، بحثوا في المقدمات والنتائج ،

وتتبعوا سير التيارات السطحية والجوفية ، واستكشفوا العوامل القريبة والبعيدة . ودونوا في مؤلفاتهم نتائج هذه الابحـــاث والتنقيبات ، والاستقراءات والاستنتاجات ، والتأملات . إنهم عملوا كل ذلك وفقاً لخطط عملية وبنظرات فلسفية واجتماعيـة .

ولذلك عندما نقرأ تلك المؤلفات ، نطلع على الروابـــط والاتجاهات والتطورات ، دون ان نحتاج الى بحثها واكتشافها بانفسنا .

ولكن الدكتور درس التاريخ العربي والاسلامي — كما ندرسه كلنا — ، من مؤلفات قديمة سجلت الوقائع تسجيلًا ، كما تراءت المؤلف ، — إما عن طريق المشاهدة واما عن طريـق السماع — دون ان تهتم كثيراً بالمقدمات والنتائج ، ودون أن تتتبع التيارات السطحية فضلًا عن الجوفية العميقة . ولذلك تراءت له الوقائع متقطعة ، غير متسلسلة — مثل ما كانت الطبقات الارضية تراءت الى بوفون — ، وعوضاً عن ان يتأمل الامـور بنظرات مستنيرة بمنـاحي الابحاث التاريخية والاجتماعيـــة والفلسفية ، راح يدعي ان التاريخ الاسلامي والعربي يختلف عن التاريخ الغربي في جوهره ، فان وقائع التاريخ الاول تتكون من سلسلة انقلابات فجائية ، لا رابطة تربط جديدها بقديمهـــا ، خلافاً لوقائع التاريخ الغربي ، وخلافاً لنظرية التطور العام !

يقول الدكتور : « ولو انك اردت ان تدرس العصر العباسي دون ان تلم بالعصر الاموي لاستطعت » . وأنا ارجوه ان يفعل ذلك ، ويقول لنـا : كيف يستطيع ان يفهم شيئـاً عن

العصر العباسي ، عندما يطوي من ذاكرته ما عرفه عن العصر الاموي ؟

كيف يستطيع الباحث ان يفهم سير الامور في العصر الذي يسمى العباسي ، اذا لم يعرف ان العرب كانوا في الحيرة تابعين للدولة الساسانية ، ثم اتوا من الجزيرة وقضوا على الدولة المذكورة واستولوا على جميع بلادها ؟ وان الفرس اعتنقوا الدين الاسلامي بعد الفتح العربي ، ولكن بعضهم اعتنق الاسلام ظاهراً ، ليحاربه من الداخل . وبعضهم اعتنق الاسلام ، ولكنه بقي متحزباً لقوميته السابقة — وصار يعمل لمصلحتها ؟

وكيف يستطيع ان يطلع على حقيقة التيارات التاريخية والاجتماعية في العصر العباسي ، اذا لم يطلع على التيارات التي سبقتها ؟

وكيف يستطيع ان يلمّ بالمقدمات والنتائج ، اذا لم يعرف مثلاً ، ان الفتوحات العربية شملت ما وراء النهر وتركستان ، وان الخلفاء صاروا ينقلون العائلات العربية الى تلك البلاد ليرسخوا جذور حكمهم فيها ، كما صاروا يأتون باناس من هناك ليستفيدوا من خدماتهم بأساليب شتى ؟

اني أعتقد ان معلوماتنا عن العصر العباسي وعن بغداد ، — مثلاً — تبقى ناقصة مبتورة ، بل تتعرض الى اخطاء كثيرة ، اذا لم تتنور وتقترن بمعلومات عن تخطيط الكوفة ، وانشاء واسط ، وواقعة كربلاء ، وولاية الحجاج ... وما شاكل ذلك من الامور التي تعود الى العهد الاموي .

ولا اغالي اذا قلت ، ما من تيار من التيارات التي ظهرت في العصر العباسي الاول – وما من عمل من الاعمال التي تمت خلال ذلك العصر – الا وكان له جذور ومنابع ومقدمات كثيرة في العصر الاموي .

يقول الدكتور ان الخليفة العباسي غير الخليفة الاموي ... ولكني أسأله : هل يستطيع ان يصف لي الخلفاء العباسيين ، بوصف يشمل جميعهم ؟ هل الخليفة الذي قضى على نفوذ البرامكة يشبه الخليفة الذي استسلم الى دسائس العلقمي ؟ هل يشبه أحد من خلفاء العصر العباسي الاول احداً من خلفاء العصر العباسي الاخير ؟ أفأكون مغالياً اذا قلت ان الخليفة العباسي الاول كان اشبه بخلفاء بني أمية منه بالخليفة العباسي العاشر ، ولا سيما بالحادي والعشرين ؟

٣

يحاول الدكتور تعليل الحالة التي ذهب اليها ، بقوله : « ربما كان مرد تلك الظاهرة التاريخية الغريبة الى أن الدولة الاسلامية انتقلت اوائل العصر العباسي من شواطيء البحر الابيض الى آسيا ، واصبحت دولة أسيوية الروح والطابع والاتجـــاه ، والعقلية الأسيوية عقلية جامدة ، غير تطورية لا تعرف التدرج » .

إني أعتقد ان كل ما جاء في هذه الفقرة يحتاج الى بحث ونظر . هل ان مجرد انتقال الحكم من اسرة الى اسرة أخرى ، والعاصمة من مدينة الى اخرى ، ينقل كل الامور من حال الى حال ، مختلف عنه

كل الاختلاف ؟ وانتقال عاصمة الدولة الاسلامية من دمشق الى بغداد ، هل يعني انتقال الشعب كله ، والحضارة كلها ؟ هل تخلت الدولة العباسية عن سوريا ومصر ؟ وعن افريقيا والمغرب؟ نعم ، استقلت الاندلس عن الدولة العباسية ، ولكـــن هل خرجت بذلك عن حظيرة العروبة ، أو حوزة الاسلام ؟ افلا يجب علينا أن نتخلى عن عادة اعتبار الملوك بمثابة الكل في الكل واهمال الامور الشعبية والاجتماعية كل الاهمال ؟

ثم ، بأي شيء يستطيع ان يبرهن الدكتور على ان العقلية الأسيوية عقلية جامدة ، غير تطورية ، لا تعرف التدرج ؟ ثم ، هل توجد هناك عقلية تشمل كل الشعوب الاسيوية ، وتستحق التسمية باسم العقلية الاسيوية ؟

يقول الدكتور ان الصين ، لا تزال تتمسك بلغـــة كونفوشيوس ، ولكن تلك اللغة ، هل خرجت من العدم ، دون تطور وتدرج ، كما خرجت منيرفا بغتـــة الى الوجود ، حسب رواية الأساطير اليونانية ؟ أفيمكن ان نشك في ان ذلك كان نتيجة تطورات طويلة ... اذا جهلناها اليوم ، لا بد من ان نكتشفها ونعرفها غداً ؟

يقول الاستاذ : ان كل شيء تبدعه العقلية الأسيوية ، يبقى كما ظهر لأول مرة . ولكني اسأله : كيف يظهر لاول مرة ؟ هل يظهر من لا شيء ؟ ..

●

صحيح ان حضارة الصين ، بقيت جامدة قروناً عديـــدة .

ولكن ألم تكن راقية ومتقدمة – بالنسبة الى زمانها – قبل جمودها ؟ هل وجدت من العدم ، أم ولدت راقية منذ بدايتها ؟ أفليس من المؤكد ان الصين لم تصل الى تلك الدرجة من الحضارة جملة واحدة ، بل وصلت اليها بتطور تدريجي ؟

صحيح ، ان حضارة الهند ، انقطعت عن النمو منذ عدة قرون . ولكن ألم تكن أرقى بكثير من الحضارة الغربية – في زمانها – من وجوه عديدة ؟ أفليس من المؤكد انها كانت وليدة تطور سابق ؟

ثم أوروبا ، التي صارت – منذ عدة قرون – مثالاً للتقدم السريع ، والتطور المهول ، ألم تعرف عهد خمول وجمود ، استمر عدة قرون ؟

اني من الذين يعتقدون ان تعليل الوقائع التاريخية بخصائص القارات ، هو من التعليلات البدائية ، السطحية التي لجأ اليها بعض المفكرين ، في اوائل عهد فلسفة التاريخ ، كما كان يعلل فلاسفة القرون الوسطى الحوادث الطبيعية ، بقولهم انها من خصائص هذه المادة او تلك ، دون أن يتعبوا أنفسهم بدرس الحوادث نفسها ، واستكشاف عواملها ...

ان كل ما اعرفه عن نتائج الأبحاث التاريخية والاجتماعية ، والتأملات الفلسفية يدفعني الى القول بان التجدد أو الجمود ، التطور السريع أو البطيء ، التغير التدريجي او الفجائي ... لم يكن من خصائص امة من الامم ولا قارة من القارات ، انما كل ذلك

من الحالات التي تعتري بعض الامم ، في بعض الأطوار من حياتها ، على اختلاف الاصول التي تنحدر منها ، وعلى اختلاف القارات التي تنتسب اليها .

ان كثيراً من الامم الأسيوية مرت بأدوار تجدد ؛ وبعكس ذلك فأن كثيراً من الامم الأوروبية استسلمت الى كرى الجمود ، في دور من أدوار تاريخها المعلوم .

لا الجمود كان من خصائص القارة الآسيوية ، ولا التجدد كان من خصال البلاد الاوروبية ، في مختلف عهود التاريخ .

٤

يقول الدكتور في صدد الكلام عن فقدان الارتباط بين الاجيال السابقة واللاحقة في تاريخ العرب والاسلام :

« بينما يشعر الانجليزي المعاصر انه متصل تمام الاتصال بالماجنا كارتا والهيبياس كوربس ، نشعر نحن شعوراً صادقاً بانه ليست هناك رابطة حقيقية تربطنا الى بني أمية أو بني العباس » .

اني لا اشارك الدكتور في هذا الرأي . ولكني لا أرى لزوماً لمناقشته طويلًا ، بل أرجح ان أنقل فيما يلي ما كتبه هو نفسه ، بمناسبة أخرى في مجلة الثقافة نفسها ، في مقالة تحمل عنوان « شرق وغرب » وتحاول البرهنة على اننا لا نستطيع ان نتخلص من الروح الشرقية :

« ان عرق الشرق ينبض في نفوسنا ويردنا الى أصلنا على الرغم من محاولاتنا : فالمدرسة المصرية الحديثة على رغم ما بذل من

جهـــود في سبيل النهوض بها تكشف آخر الأمر عن الكتاب القديم في روحها وطريقة التعليم فيها . وادارات الدولة الحديثة ليست آخر الأمر الا دواوين الشرق القديمة . وانك لتشعر اذا أقبلت على مكتب مدير مصري ، كأنك في دار الوزير العباسي علي بن عيسى الذي كان ينقل أوراق الدولة وملفاتهـــا الى بيته ويكدسها في غرفته ، ويجلس بينها وبين يديه كاتبه أو كتابه ، ويدخل الناس جماعات جماعات ، يتحدثون اليه ويساعدونـــه ، وهو يملي ويوقع ويقرر ويصادر أموال الناس ، أو يمنح أصدقاءه ومادحيه آلاف الدراهم أو الدنانير . لا زال المـــدير المصري الحديث هو الكاتب العباسي القديم ، رغم المكتب الحديث وآلة التليفون والبذلة الأوروبية والرطانة الافرنجية » .

اني لا أقر صاحب المقالة على جميع ما جاء في هذه الفقرات ، ولكني نقلتهـا لاظهر التناقض الصريح الموجود بينها وبين ما جاء في المقالة الـتي نحن بصددها : هناك يقول : « ليست هنـاك رابطة حقيقية تربطنا الى بني أمية أو الى بني العباس » ، وهنـا يزعم « ان الوزير المصري لا يختلف عن الوزير العبـــاسي ، والمدير المصري يشبه الكاتب العباسي .. »

ان التناقض لا ينحصر بين هذه الفقرة وتلك ، بـــل يظهر للعيان بينها وبين مجموع النظرية التي أوردها في مقالة « مستقبـل العرب » .

المقالة تحاول ان تبرهن على ان التاريخ الاسلامي يتألف من عصور متوالية ، « منفصل كل منها عن الآخر كل الانفصال ... وان

العصر في تاريخ المسلمين اذا انقضى انمحت آثاره كلها..» واما الفقرة المذكورة فانها تفيد ان أحوال الدولة العباسية لا تزال مستمرة في مصر الى الآن ...

ان هذه الآراء المتناقضة صادرة من قلم واحد، ومنشورة في مجلة واحدة. والمدة التي مضت بين نشر الاولى ونشر الثانية عبارة عن شهرين.

أفلا يحق لي أن أقول — والحالة هذه — ان الأبحاث التاريخية لا يجوز أن ترتجل كما ترتجل المقالات الصحفية ؟.

حول مقال

العرب في سويسرا

١

نشرت جريدة الاهرام – قبل نحو ثلاث سنوات، في عددها الصادر ١٩٥٢/٦/٧ – فقرة تحت عنوان « العرب في سويسرا » ، بتوقيع الدكتور عبد العزيز سامي .

فقد جاء في هذا المقال ما يلي :

« زرت مدينة سان موريتز الجميلة ، والتقيت بأحد السويسريين ، ثم تبادلنا الحديث عن الأماكن التي يستحسن زيارتها في هذه المنطقة. فلفت نظري وجود مكان يدعى Al Fourn باللهجة المحلية ، وبه ممر يدعى Ofen Pass بالألمانية اي « ممر الفرن » ويلاحظ القاريء الشبه الشديد بين كلمتي « الفرن » و Al Fourn ولكني ظننت انه محض مصادفة . الى ان قرأت ما يأتي في دليل محلي عن هذه الجهة من البلاد :

« في القرن العاشر الميلادي دخل العرب Sarracens منطقة الانجادين (التي بها سانت موريتز) متحالفين مع أميرها « هوجو فون بروفنز » ضد خصمه الملك « برنجار » الذي فر الى جنوب ألمانيا . وانشأ العرب بها مستعمرة « العين » Aleien وتسمى حالياً Aosa . وقد بنوا برجاً في بونتريسينا لا يزال قائماً الى الآن .

« واسم بونتريسينا نفسه محرف عن Pont Saracena أي «قنطرة العرب » ، اذ أنهم كانوا أنشأوا قنطرة بها على النهر .

غير ان احتلال العرب لهذا الوادي لم يطل ، اذ انسحبوا من جنوب فرنسا وما يجاورها واقتصرت دولتهم على الاندلس كما هو معروف .

وقد لاحظت وجود كلمات في اللغة المحلية لا بد أن تكون عربية الأصل . فالمحبوب يسمى Il Marus والمحبوبة La Maruса . واكبر الظن ان الكلمتين أصلها « المحروس » و « المحروسة » ، ووجه الشبه لا يحتاج الى بيان » .

٢

وبعد بضعة أيام نشرت جريدة الأهرام نفسها تعليقاً على هذه الملاحظات الثمينة ، تحت عنوان « المسلمون في سويسرة » ، بتوقيع محمد عبد الله عنان .

قال المحرر في هذا التعليق ما يلي :

« قرأت في أهرام يوم السبت كلمة لحضرة الدكتور عبد العزيز سامي تحت عنوان « العرب في سويسرا » أشار فيها الى

ما لمسه اثناء زيارته لمدينة سان موريتس من وجود كلمات ترجع الى اصول عربية ، وما قرأه في دليل هذه المنطقة من ان العرب غزوا ولاية آنجادين بسويسرا في القرن العاشر الميلادي .

وغزوات المسلمين (ليس العرب) لجنوبي فرنسا وشمالي ايطاليا ومناطق الألب السويسرية مشهورة في التاريخ . ولكنها لم تكن منذ القرن التاسع غزوات حكومات نظامية . بل كانت غزوات جماعات مغامرة مستعمرة من المسلمين ، معظمهم من اهل الاندلس والجزائر الشرقية وشمالي افريقيا. وقد غزا اولئك المستعمرون خلال القرن التاسع الميلادي جنوبي غاليس (فرنسا) ولا سيما بروفانس ، ثم نفذوا الى سافوا وبييمون، وغزوا بعدها سويسرا في اوائل القرن العاشر ، وبدأوا بمنطقة فاليش (فاليه) ثم غزوا ولاية جريزون ، وشواطيء بحيرة جنيف ومفاوز جورا ووصلوا في توغلهم في سويسرا الى مدينة سالي جالن وشواطيء بحيرة كوتستانس، وانشأوا في هذه الانحاء كثيراً من المستعمرات والمعاقل ، ولبثوا في كثير منها حتى اواخر القرن العاشر، حيث اخرجوا تباعاً وقضي على مستعمراتهم ، ولكنهم تركوا وراءهم كثيراً من الاثار المادية والادبية .

وقد فصلت قصة هذه الغزوات الاسلامية في كتابي « دولة الاسلام في الاندلس » (القسم الثاني ص ١١٨ - ١٣٤) . وقد تناولها كثير من الكتاب الغربيين بالتفصيل والتعليق .

وأود بهذه المناسبة ان اشير الى أنه من التجاوز ان يذكر اسم العرب بمناسبة هذه الغزوات او غيرها . اذ كانت الصفة

العربية قد غاضت منذ بعيد عن الفتوحات الاسلامية » .

٣

ان تعليقات الاستاذ محمد عبد الله عنان هـــذه ، استوقفت نظري بشدة ، واثارت في نفسي عدة ملاحظات مريرة :

انه يغير عنوان البحث ، ويجعله « المسلمون في سويسرا » عوضاً عن « العرب في سويسرا » . وفضلاً عن ذلك يصرح ان الغزوات المذكورة قام بها «المسلمون لا العرب» ، وفي الاخير، يؤكد على ذلك بقوله : « من التجاوز ان يذكر اسم العرب بمناسبة هذه الغزوات او غيرها. اذ كانت صفة العروبة قد غاضت منذ بعيد عن الفتوحات الاسلامية » .

اذن انه يزعم بان الذين قامـوا بتلك الغزوات ، في جنوب فرنسا وفي سويسرا ، — ما وراء البيرنس وعلى جبال الالب — لم يكونوا من العرب ، بل كانوا من المسلمين . ولكن هـؤلاء المسلمين ، اما كانوا من العرب ؟ هـل كانوا من الفرس او من الاتراك او من المغول ؟ انهم كانوا من اهل الاندلس ؛ ولكن الاندلس ، اما كانت عربية ؟

ان الاستاذ عبد الله عنان لا يرضى حتى يذكر اسم العرب بمناسبة هذه الغزوات ، لانه يزعم بان صفة العروبة قد غاضت منذ بعيد عن الفتوحات الاسلامية . ولكني انا لا ادري كيف ومتى غاضت صفة العروبة من الاندلس ؟

نعم ، ان بعض الفتوحات الاسلامية لم تتم على يد العرب .

فان الاتراك السلاجقة – بعد ان دخلوا في حوزة الاسلام – فتحوا الاناضول . والاتراك العثمانيون فتحوا بلاد البالقان ؛ والمغول – بعد الاسلام – تغلغلوا في الهند . ولكن الاندلس ، وما وراء الاندلس، من فتحها ، ومن غزاها ، ومن استوطنها، ومن مدّنها ؟

ربما قال الاستاذ ، كان بينهم عدد غير قليل من البربر ، ولكن هؤلاء البربر ، اما كانوا قد استعربوا خلال تلك القرون في تلك البلاد ؟

ثم : اي جيش من الجيوش الفاتحة ، التي يعرفها التاريخ ، تكونت من عنصر واحد ؟

فلنلق نظرة واحدة الى تاريخ الرومان ، الذين كانوا اعظم الفاتحين في التاريخ القديم : جيشهم كان يتألف من اهالي مختلف البلاد المفتوحة ، من غاليا واسبانيا الى ليبيا وسوريا . واما اهل روما ، فما كانوا بين هؤلاء الا اقلية ضئيلة . حتى مقام الامبراطورية نفسه، لم يبق محصوراً بالرومان الاصليين . فالتاريخ يذكر لنا عدداً غير قليل من الاباطرة الذين لم يكونوا من اصل روماني : فان انطونين –مثلاً– كان من اهل غاليا ، وماركوس اوره ليوس كان من اهل اسبانيا ، وسبتيموس سيفريوس كان من افريقية . وزوجته المشهورة – جوليا دونا – كانت من اهل حمص في سوريا ، وابنه كاراكالا ، عندما صار امبراطوراً لعب دوراً هاماً في تاريخ الدولة ، إذ منح حق المواطنة لجميع سكان الامبراطورية . حتى ... ان احد الاباطرة حافظ على

لقبه الاصلي ، اذ عرف باسم « فيليبوس آرابيكوس » ، (فيليب العربي) وكان من اهالي حوران . ومما يجدر ذكره ، ان المهرجانات التي اقيمت بمناسبة مرور الف عام على تأسيس روما ، جرت في عهد هذا الامبراطور الذي كان عربي الاصل ، وعربي اللقب !..

ومع كل ذلك ، هل قال احد المؤرخين عن تلك الامبراطورية ، انها لم تكن « رومانية » ؟

أفليس من الغريب ان يقوم – مع ذلك – كاتب عربي ، اشتهر بمؤلفاته التاريخية ، ويقول : لا يجوز ذكر اسم العرب ، بمناسبة الغزوات المبحوث عنها ؟

٤

ان فداحة الاثم الفكري الذي تنطوي عليه كلمة الاستاذ عبدالله عنان ، تظهر بوضوح أتم ، عندما نرجع الى صحائف التاريخ ، ونحدد الازمنة التي حدثت خلالها الوقائع المبحوث عنها .

ان تغلغل العرب في جبال الآلب وتسيطرهم على المجازات السويسرية الموصلة الى ايطاليا ، قد حدث – بطبيعة الحال – بعد استيلائهم على سبتيمانيا – في جنوب فرنسا – وتحصنهم في الجبال المشرفة على سهول البروفانس . وكان ذلك في أواخر القرن التاسع وأواسط القرن العاشر الميلاد . اي : النصف الاخير من القرن الثالث والنصف الأول من القرن الرابع للهجرة .

وذلك يعني : في العهد الاموي الزاهر في الاندلس ، وزمان خلافة عبدالرحمن الناصر في قرطبة !

هذا هو العهد الذي يزعم الاستاذ عبدالله عنان بانه لا يجوز ذكر اسم العرب بمناسبة الغزوات التي تمت خلاله !

من المفيد ان نذكر هنا واقعتين من الوقائع التي سجلها المؤرخون عن عهد الناصر ؛ تعود احداهما الى اوائل ذلك العهد ، والثانية الى اواخره :

سنة ٩٢٠ م (٣٠٨ هـ) – بعث الخليفة عبدالرحمن الناصر عمه عبدالملك – الذي لقب بعد ذلك بـ « المظفر » – لغزو بلاد الفرنجة . فاجتاز عبدالملك بجيوشه جبال البرانس ، واكتسح جانباً عظيماً من غشقونيا ، ووصل الى أبواب طلوزا (مدينة تولوز الحالية في فرنسا) .

سنة ٩٥٦ م (٣٤٥ هـ) – اوفد الامبراطور اوطون الكبير سفيراً الى عبدالرحمن الناصر في قرطبة . والغرض الأساسي من هذه السفارة ، كان التشكي من أعمال العرب المسيطرين على مجازات الآلب وطلب توسط الخليفة لوضع حد لتعدياتهم ، لأن القوم كانوا يعتبرون المستعمرات العربية القائمة في تلك النواحي تحت حماية الخليفة .

افليس من الغريب ان يقول الاستاذ عبدالله عنان « لا يجوز ذكر اسم العرب ... » – على الرغم من وجود أمثال هذه

النصوص التاريخية فضلاً عن الملاحظات العامة التي سردتها آنفاً* ؟

يشير الاستاذ عبدالله عنان - بهذه المناسبة - الى احد كتبه ، فيقول : (وقد فصلت قصة هذه الغزوات الاسلامية في كتابي « دولة الاسلام في الاندلس » القسم الثاني ص ١١٨ - ١٣٤) .

ولكن ما كتبه الاستاذ في كتابه المذكور مختصر جداً : انه يقع في ١٦ صفحة فقط . غير انه يوجد في المكتبة العربية كتاب مفصل في هذا الموضوع . كتاب « غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وايطاليا » ، تأليف الامير شكيب ارسلان .

لقد لخص المؤلف في هذا الكتاب ما نشره عن هذه الغزوات باحث افرنسي وآخر الماني .

والكتاب مسهب ، فنوصي كل من يود الاطلاع على تفاصيل تلك الغزوات - بمراجعته .

obeikandl.com

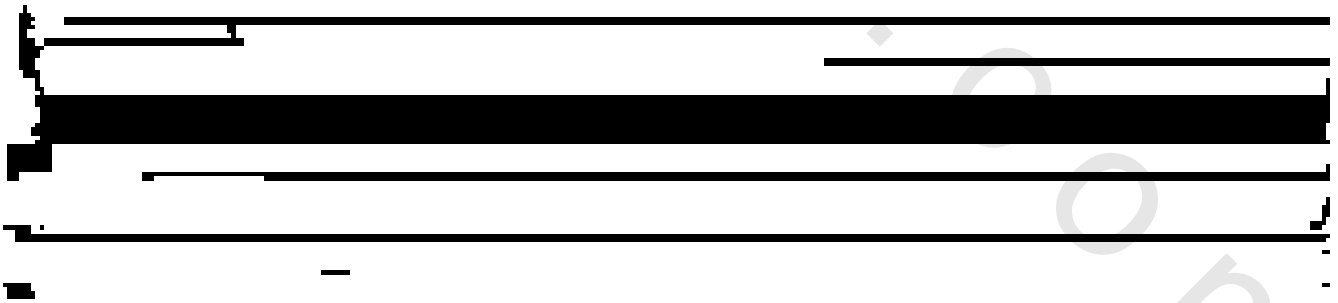

obeikandl.com

obeikandl.com

١

لقد اعتاد الأوروبيون والاميركيون ان ينظروا الى بلادنا والبلاد المجاورة لنا من زاويتهم الخاصة وبمنظارهم الخاص ، من خلال مصالحهم الاقتصادية والسياسية والعسكرية؛ ولذلك حددوا على خارطة الأرض ، حول ملتقى قارتي آسيا، وآفريقيا، منطقة أسموها باسم « الشرق الأوسط » ، وصاروا يولونها اهتماماً خاصاً فيجعلونها موضوع دراسات وأبحاث ، واذاعات خاصة .

ولهذا السبب ، صرنا نقرأ - في مختلف اللغات - مجموعة كبيرة من الكتب والمجلات التي تحمل اسم هذه المنطقة ، وصرنا نشاهد كثيراً من الخرائط التي تصور « الشرق الاوسط » ؛ ونسمع كثيراً من الاخبار عن الاجتماعات التي يعقدها - من وقت الى آخر - ممثلو هذه الدولة او تلك في « الشرق الاوسط » ، وعن معاهد الابحاث التي تتولى دراسة شؤون الشرق الأوسط ، وعن المؤتمرات الدورية والمنظمات الدائمة التي تسعى الى تنسيق العلاقات

بين دول الشرق الاوسط . كما صرنا نقرأ كثيراً من الأخبار عن المشاريع التي توضع والمقررات التي تتخذ بقصد الدفاع عن هذه المنطقة من العالم .

وصار الكثيرون منا يتأثرون من هذه الاخبار والكتابات الكثيرة ، فيشاركون الغربيين في هذه النظرات الخاصة ، ظناً منهم بانها « نظرات علمية » ، تستند الى حقائق جغرافية ، غافلين عن العوامل السياسية التي رسمت وعينت حدود هـــذه المنطقة وفق ما تقتضيه مصالح الدول العظمى .

ولذلك ، صارت تظهر في المكتبة العربية ايضاً طائفة من الكتب والمقالات والخرائط التي تحمل اسم الشرق الاوسط ، وتلفت الانظار الى شؤون هذه المنطقة .

٢

ومما يجب ان يلاحظ في هذا المضمار ، ان خارطة المنطقة التي تسمى الشرق الاوسط ، تشطر العالم العربي الى شطرين : تترك الشطر الغربي منه جانباً ، فتهمله اهمالاً كلياً ، واما الشطر الشرقي منه فتدخله داخل نطاقها ، الا انها تحشره مع طائفة من البلاد الـ « غير عربية » وتطمس بذلك معالم العربي ، وتخفي عـــن الانظار شخصيته الخاصة .

ولذلك نستطيع أن نقول ان فكرة الشرق الاوسط ، عندما تستولي على الاذهان تصرف الانظار عن الالتفات الى العالم العربي ، وتعرقل بذلك تبلور مفهوم « العروبة » تبلوراً

سليماً ، وتحول دون تكوين فكرة العالم العربي تكويناً سوياً .

اني كتبت المقالتين التاليتين – في تاريخين مختلفين – بغية كشف النقاب عن مصدر فكرة الشرق الاوسط ، واظهارهـا بمظهرها الحقيقي وتخليص خارطة العالم العربي من الظـــلال المشوّشة ، التي تلقيها عليها فكرة الشرق الاوسط ، والتي تحول دون ارتسامها في اذهاننا بما تستحقه من الوضوح والبروز .

الشرق والشرقيون

لبعض الكلمات حظ غريب ، وسيرة عجيبة : تلفظها الالسن وتكتبها الاقلام . دون ان تخصصها لمعنى واضح ثابت .

فان معاني هذه الكلمات كثيراً ما تبقى غامضة الملامح ، مبهمة التقاطيع ، مثل الاشباح التي تتراءى للأنظار من وراء زجاج قليل الشفافية ، أو من بين طبقة كثيفة من الضباب : شكلها لا يظهر بوضوح تام ، بل يكون غامضاً بعض الغموض ، ولكن هذا الغموض يسمح لكل واحد من الناظرين اليها ان يعطيها الشكل الذي يروق له ، او يتخوف منه او يتمناه ، أو يتوقعه ، وخلاصة القول : الشكل الذي ترسمه له أوهامه ورغباته .

والناس يكثرون من ذكر تلك الكلمات ويسترسلون في

المناقشة حولها ، من غير ان ينتبهوا الى ان المعنى الذي يقصده منها أحد المتكلمين قد يختلف عن المعنى الذي يفهمه منهـا مخاطبوه ومعارضوه .

لعل كلمة الشرق من اغرب الامثلة على ذلك .

●

الشرق ! ...

كلمة تتناقلها الالسن والاقلام ... تارة مستقلة بذاتهـا ، وطوراً منسوبة الى غيرها : الشرق، الشرقي ، العقلية الشرقية ، الحضارة الشرقية ، العادات الشرقية ، الثقافة الشرقيـة ... الى آخر ما هنالك من الشرقيات ... التي نسمعها او نقرأها ، او نقولها في مختلف المناسبات .

ولكننا اذا ما تساءلنا : ماذا يقصد من كلمة الشرق والشرقي بالضبط ، وجدنا انفسنا أمام فوضى كلامية غريبـة ، وبلبلة فكرية شديدة .

من المعلوم ان لكلمة الشرق معنى واضحاً وثابتاً في الجغرافيا. ولكن هذا المعنى الجغرافي نفسه من المعاني النسبية التي تتبـع مواضع الأمكنة والأشياء . فلكل مكان شرق خاص بـه . ولكل شيء شرق لا ينفك عنه . فكل مـكان من الأمكنة يكون في غرب بعض المواضع ، وفي شرق بعض المواضـع الاخرى . فاذا انتقل المرء من مكان الى آخر ، انتقلت معه على الفور بعض الأماكن من شرقه الى غربـه . أو من غربه الى شرقه .

وخلاصة القول ، ان المعنى المفهوم من كلمة الشرق – في الاصل – هو من المعاني النسبية التي لا يمكن تصورها مجردةً عن كل اعتبار ، ومطلقةً عن كل قيد .

ومع هذا ، قد اعتاد الناس – في كل انحاء العالم – على استعمال هذه الكلمة بمعنى مطلق ، للدلالة على بعض الاقطار المعينة من الكرة الارضية . وهذا الاستعمال المطلق يفتح باباً واسعاً لضروب من الالتباسات والاختلافات .

فنحن العرب – مثلاً – نسمي تونس والجزائر ومراكش باسم المغرب . وهذه تسمية صحيحة بالنسبة الينا ، لأن تلك البلاد تؤلف القسم الغربي من العالم العربي . غير ان الأوروبيين – ومن جملتهم الفرنسيون – يدخلون الاقطار المذكورة في عداد البلاد الشرقية ، مع انها لم تكن شرقية – بالمعنى الصحيح – لا بالنسبة اليهم ، ولا بالنسبة الينا . انهم يدخلونها في عداد البلاد الشرقية ، لمشابهة أحوالها بأحوال بعض البلاد التي هي شرقية حقيقةً بالنسبة اليهم .

فيترتب علينا ، أن نبحث اذن : ما هو الشرق بالنسبة الى هذا الاستعمال الاصطلاحي ؟ اين يبدأ ؟ وأين ينتهي ؟ وبماذا يمتاز عن الغرب ؟

●

لقد اعتاد الأوربيون – منذ قرون عديدة – على استعمال كلمة الشرق للدلالة على البلاد التي تمتد من تركيا وايران الى

الصين واليابان .

لكنهم صاروا يقسمون البلاد المذكورة الى ثلاث مناطق كبيرة ، ويسمونها – حسب درجة قربها الى اوروبا – : الشرق الأدنى ، والأوسط ، والأقصى .

انهم يتفقون في اعتبار تركيا مع الشرق العربي من بلاد الشرق الادنى ، كما يتفقون في اعتبار الصين واليابان من بلاد الشرق الاقصى . غير انهم يختلفون في تعيين حدود الشرق الادنى من ناحية الشرق ، وحدود الشرق الاقصى من ناحية الغرب ، كما يختلفون في تحديد « الشرق الاوسط » من جميع الجهات .

فهناك من يقول : ان الشرق الأدنى هو الشرق المتصل بالبحر الأبيض المتوسط ، والشرق الأوسط هو جميع البلاد المطلة على المحيط الهندي ؛ والشرق الأقصى هو جميع البلاد الآسيوية التي تقع في المحيط الهادي أو تطل عليه .

وهناك من يحجر تعبير الشرق الأدنى ، فيكتفي بتقسيم الشرق إلى أوسط وأقصى .

وبين الذين يذهبون هذا المذهب من يحصر مدلول الشرق الاوسط ، بمصر وايران وبالبلاد العربية والتركية التي تمتد بينهما ؛ ومن يدخل بلاد الأفغان أيضاً في مدلول هذا التعبير .

وهناك من يوسع مدلول الشرق الاوسط أكثر من ذلك ، ويجعله شاملاً لجميع البلاد التي تمتد بين تونس وبورما .

ولا أراني في حاجة الى البرهنة على أن هذا الاختلاف الكبير وحده ، يدل دلالة قاطعة على ان هذه التقسيمات والتصنيفات، لا تستند الى اسس ثابتة من الجغرافيا الطبيعية أو البشرية ، انما هي تقسيمات اعتبارية ، تسعى الى تقريرهـا سياسة الدول الغربية ، حسب ما تقتضيه مصالحهـــا الاقتصادية ، والاستراتيجية ، والاستعمارية .

●

ومما يلفت النظر ان كثيراً من المفكرين والكتاب لا يتقيدون حتى بأمثال هذه التحديدات الجغرافية ، بل يطلقون لأقلامهم زمام الاسترسال في تحديد الشرق والبلاد الشرقية بشتى الصور والأساليب .

وأذكر أني كنت قرأت مقالة لمفكر هندي ، كتبها عندما كان يجتاز البحر الأحمر ، فاعتبر البحر المذكور الحد الفاصل بين الشرق والغرب .

كما اذكر اني كنت قرأت رواية لـكاتب تركي يقف بطلهـا على الجسر الموصل بين طرفي الخليـج في استانبول ، ويعتبر نفسه واقفاً بين الشرق والغرب .

وأعرف ان هناك من يقول بوجوب التمييز بـــين الشرق الجغرافي والشرق الثقـافي : ومن يتكم عن الشرقيّ من حيث السلالة والشرقي من حيث الحضارة .

وهناك من يزعم ان الشرق ينحصر في الهند والصين .

حتى ان هناك من يتردد ويتأرجح في هذا المضمار ، فيحدد مدلول الشرق مرة بشكل ، ومرة اخرى بشكل آخر .

فلا غرابة في كل ذلك :

لأن كلمة الشرق – خارج مدلولهـــا الجغرافي الاصلي – لا تدل على شيء حقيقي معين . انمـــا تدل على امور اصطلاحية ، نتجت عن بعض الظروف التاريخية ، واختلفت باختلاف تلك الظروف ، وتطورت بتطورها ، بطبيعة الحال :

انشطرت الامبراطورية الرومانية – في القرون القديمة – الى امبراطوريتين ، سميت احداهما امبراطورية روما الغربية ، وسميت الثانية امبراطورية روما الشرقية ، نظراً الى وضعهما الجغرافي بالنسبة الى الامبراطورية الاصلية .

بعد ذلك بمدة ، انقسمت الكنيسة المسيحية ايضاً الى شرقية وغربية ، تبعاً للأسماء التي نتجت عن انقسام الامبراطورية .

ثم أخـــذ مدلول الشرق والغرب يتغير شيئاً فشيئاً ، بعد ظهور الاسلام ، الى أن أصبح – تقريباً – يعني العالم الاسلامي والعالم المسيحي .

وعندما قامت الدولة العثمانية ، وأخذت تتوسع في القارة الأوروبية ، صار شمول كلمة الشرق يتغير بتغير حدود الدولة المذكورة . ومن المعـــلوم ان تعبير « المسألة الشرقية » ظهر – أول ما ظهر – مرتبطاً باراضي الدولة العثمانية ، وبالقضـــايا السياسية الناجمة عن أوضاع الدولة المذكورة . . .

ولكن ، بعد ذلك ، عندما توسع نطـــاق اهتمام الدول الأوروبية بما وراء الدولة العثمانية ، أخذ مفهوم الشرق يمتد على طول قارة آسيا ؛ ونتج عن ذلك تقسيم البلاد المذكورة الى الشرق

الأدنى والأوسط والأقصى .

وعندما أخذت السياسة الاميركية تلعب دوراً هاماً في هذه البلاد ، لم تر لزوماً للتمييز بين الشرقين الادنى والاوسط ، ولذلك أخذ تعبير الشرق الادنى ينسحب من ميدان الاستعمال شيئاً فشيئاً .

وفي الاخير – بعد الحرب العالمية الاخيرة – ، اكتسبت كلمة الشرق مدلولاً جديداً ، انضم الى مدلولاتها المتعارفة سابقاً : لأن العالم المتغلب انقسم الى كتلة شرقية تتزعمها روسيا السوفيتية ، وكتلة غربية تتزعمها الولايات المتحدة الاميريكية . ولذلك ، صارت كلمتا الشرق والغرب ، كثيراً ما تستعملان في الميدان السياسي ، للدلالة على العالم الشيوعي والعالم الرأسمالي ...

وظل يتطور مدلول كلمة الشرق – على هذا المنوال – تبعاً لتطور الاوضاع السياسية الدولية .

●

ومن الغريب ، انه – على الرغم من كل هذه الحقائق والوقائع – ، اندفع ، ولا يزال يندفع ، الكثيرون من المفكرين والكتاب في البحث عن الصفات العقلية والخلقية التي تميز الشرقيين عن الغربيين ، وأخذوا يبدون في ذلك شتى الآراء والنظريات .

فقد تنوعت هذه الآراء والنظريات إلى أقصى حدود التنوع .

وقد اتخذ بعض الكتاب هذه القضية وسيلة للتندر والتفكه ، فقالوا :

الشرقي يكتب من اليمين الى اليسار ، واما الغربي فيكتب من اليسار الى اليمين ..

الشرقي يخلع حذاءه من رجليه عندما يدخل المعبد ؛ واما الغربي فيرفع قبعته عن رأسه .

الشرقي يعتبر تدخل الاطفال في حديث الكبار من دلائل قلة الادب وسوء التربية ، واما الغربي فيعتبر ذلك من علائم الذكاء والنباهة ...

ولكن بعض الكتاب نظروا الى قضية الشرق والغرب، من زوايا السياسة ، أو الاقتصاد ، أو الديانة :

فقال أحدهم : الشرق زراعي والغرب صناعي .

وقال آخر : الشرق بلاد الروحانيات والغرب بلاد الماديات ..

وقال أحدهم: الشرق بلاد الأحلام ، والغرب بلاد الحقائق..

وقال آخر : الشرق بلاد الاستبداد ، والغرب بلاد الحرية .

وقال بعضهم : الشرق بلاد الشعر والأدب ، والغرب بلاد العلم والعمل ..

وهكذا ، استرسل المفكرون والكتاب في بيان الأوصاف التي تميز - على زعمهم - الشرق عن الغرب والشرقيين عن الغربيين .

وبناء على هذه الظروف ، زعم البعض : ان الشرق شرق والغرب غرب ، وسيبقيان متخالفين على الدوام .

في حين ان البعض الآخر قال - بعكس ذلك .. : لا حياة

للنوع البشري ، الا بتمازج الشرق والغرب ..

وقال آخرون : ان الانسانية لن تكتمل الا بانضمام حكمة الشرق الى علم الغرب ..

●

ان قليلاً من التأمل في أحوال الامم وأحداث التاريخ ، يكفي للتأكد من ان هذه الاقوال لاتنطبق على حقائق الامور ، ان كل واحد منهـــا يستند الى بعض الملاحظات والمشاهدات المحصورة في زمان معين ومكان محدود من بعض البلاد الشرقية . وتعميم هذه الملاحظات والمشاهدات المحدودة على سائر الأزمنة والأمكنة ، لا ينطبق على مقتضيات العقل والمنطق ، بوجه من الوجوه .

فان الحرية مثلاً ، لم تختص أبداً بالبلاد التي تسمى غربية ؛ كما انها لم تلازم شؤون تلك البلاد على الدوام . والبلاد التي نراها الآن متمتعة بحرية واسعة النطاق ، قد شهدت في الماضي عـدة عهود من الاستبداد الفظيع ..

ونستطيع أن نقول نفس الشيء بالنسبة الى المـــاديات والمعنويات ، وبالنسبة الى الزراعة والصناعة ... أيضاً .

ومن العبث أن نبحث عن اوصاف تشمل جميع الشرقيين ، وتميزهم عن جميع الغربيين ... بعد ان علمنا — من بحثنا السابق — ان تعبير البلاد الشرقية والبلاد الغربية نفسه ، من التعبيرات الاصطلاحية التي لا تستند الى حقائق طبيعية .

ان تقسيم البلاد والامم — بهذه الصورة — الى شرقية وغربية ،

يشبه تمام الشبه التقسيمات البدائية السطحية التي يركن اليهـــا الأطفال والاقوام في بدء حياتهم الفكرية، والتي يلجأ اليها عوام الناس أيضاً في بعض الأحيان :

من المعلوم ان الرومان كانوا يسمون الأجانب باسم «البابار» بوجه عام ، من غير أن يأخذوا بنظر الاعتبار الفروق العظيمة التي تميز طوائف هؤلاء بعضها عن بعض .

وأجدادنا العرب القدماء كانوا ينعتون غير العرب باسم « العجم » ، من غير أن يعبأوا بما بين أنواع هؤلاء من اختلاف ، من حيث الأوصاف المـــادية والمعنوية ، من السحنة والشمائل واللغة والعادات ..

وفي وقت قريب من أيامنا هذه، كان قد نشأ معظم الناطقين بالضاد على تسمية الاوروبيين والاميركيين باسم « الافرنج » بوجه عام ، بقطع النظر عما بينهم من فروق كبيرة .

ومن المعلوم ان سواد الناس في مصر ، يطلق صفة « التركي» على كل الذين يأتون من استانبول أو الانضول ، سواء كانوا من الآلبان والشركس والكرج أو الاتراك .. على الرغم مما بين هؤلاء من فروق واختلافات .

ان أمثال هذه التقسيمات والتعبيرات تتـــولد من النظرات السطحية ، وتهمل وتهجر، عندما يُنظر الى حقائق الاشياء بشيء من الدقة والتفصيل .

ويجب أن نعلم العلم اليقين ان كلمات الشرقي والغربي، والشرقية

والغربية ، لا تختلف في هذا المضمار عن الكلمات التي ذكرتها آنفاً .

فلا شك في انها لن تعمر طويلًا بعد الآن. بل ستهمل وتهجر – عاجلًا أو آجلًا – كما هجرت كلمات الباربار والعجم والافرنج .

obeikandl.com

الشرق الأدنى والشرق الاوسط

١

ان منظمة الامم المتحدة للتربية والعلم والثقافة - المعروفة باسم اليونسكو - اقترحت ، سنة ١٩٤٨ ، انشاء مركز ثقافي خاص بالشرقين الأدنى والأوسط .

ورأت ان يشمل هذا المركز « بلاد الجامعة العربية وتركيا وايران والأفغان » ؛ وأن يعمل لضمان تعاون البلاد المذكورة بعضها مع بعض ، في ميداني التربية والثقافة ، بمساعدة اليونسكو .

وقد قدم مشروع هذا المركز الى جامعة الدول العربية ، ووضع على بساط البحث في اللجنة الثقافية التابعة للجامعة المذكورة ، خلال انعقادها في مصيف بحمدون في جبل لبنان .

وأنا ، عندما اطلعت على تفاصيل هذا المشروع عارضته بشدة

من الوجهتين العلمية والقومية .

عارضته من الوجهة العلمية . لاني أعرف ان الثقافة لا تتبع التقسيمات الجغرافية – الطبيعية أو السياسية – ؛ وان حدود ما يمكن ان يسمى المناطق الثقافية تختلف عن حـــدود ما يسمى مناطق جغرافية، فانشاء مراكز ثقافية على اسس جغرافية يخالف طبيعة الثقافة مخالفة كلية .

ومما يزيد هـــذه المخالفة خطورة ، ان المنطقة التي يسمونها الشرق الأدنى والأوسط ،هي منطقة اصطلاحية خطت حدودها سياسة الدول الغربية ، وفقاً لمصالحها الخاصة ، من غير ان تأخذ بنظر الاعتبار اختلاف سكان أقسامها المختلفة من حيث اللغـــة والثقافة والمصالح والتقاليد .

فاذا أرادت اليونسكو ان تنشيء مراكز فرعية، يجب عليها ان تفعل ذلك على أساس الخصائص الثقافية، لا على اساس التقسيمات الجغرافية والسياسية .

وعارضت المشروع من الوجهة القومية، لاني اعتقد ان الثقافة في البلاد العربية قد تبلبلت الى أقصى حدود التبلبل ، من جراء سيطرة الثقافات الأجنبية المختلفة على مختلف اقطارها ، فهي الآن في اشد الحاجة الى لمّ الشعث ، والتحرر من سيطرة الثقـــافات الاجنبية ، لكي تكسب شخصية واضحة ، فتصبح عربية عصرية بكل معنى الكلمة . فلا يجوز لنا أبداً – والبلاد العربية في هذه الحالة من التبلبل الثقافي – ان نعود فنسعى الى زيادة الاتصال بالثقافة التركية والايرانية .

لا يجوز لنا أبداً ان نوجه جهودنا نحو مركز ثقافي لا يشمل

الا جزءاً من البلاد العربية ، ويحشر ثقافة هـذا الجزء نفسه مع ثقافات تركيا وايران ، فيعرقل بذلك نموها نمواً سوياً، ويبعدها عن الطرق المؤدية الى استكمال وسائل الاستقلال والازدهار .

يجب علينا ان ننضم الى الهيئات الدولية التي تعنى بشؤون العلم والتربية والثقافة ، لكي نرتوي بزلال العلم والمعرفة والثقافة من منابعها الاصلية ، ويجب علينا ان نسعى الى تـــأليف منظمات علمية وثقـــافية تشمل جميع البلاد العربية . ولكنه لا يجوز لنا ان نساهم في تكوين مركز ثقافي يشمل البلاد المعروفة باسم « الشرق الأوسط » ونتجاهل بذلك شخصية عالمنا العربي .

٢

اني عارضت « مشروع المركز الثقافي الخاص بالشرقـــين الادنى والأوسط » لهذه الملاحظات الاساسية .

ولكني لاحظت ان معارضتي هذه اثارت استغراب عـدد غير قليل من اعضاء اللجنة . لانهم كانوا متأثرين بكثرة ما يقوله ويكتبه الاوروبيون والاميريكيون عن الشرق الاوسط ، غير منتبهين الى النظرات السياسية الخاصة التي اوجدت فكرة هذه المنطقة .

والمناقشات التي جرت خلال اجتماعات اللجنة لم تقنع هؤلاء بضرورة رفض المشروع ، ولكنها حالت دون الموافقة عليه . فأحالت اللجنة هذه القضية الى الدول العربية نفسها ، وذلك أدى الى اهمال المشروع .

ان مدير اليونسكو جوليان هكسلي انفعل كثيراً من عدم اقرار المشروع ، فكتب في التقرير السنوي الذي قدمه الى مؤتمر اليونسكو عدة عبارات جارحة واصفاً المعارضة التي لاقاها المشروع بالمخاتلة ، وبالاقليمية الضيقة القائمة على اساس الثقافة العربية وحدها .

وأنا عندما قرأت التقرير المذكور ، ارسلت الى جوليان هكسلي كتاباً خاصاً ، شرحت فيه وجهة نظري ، وفندت الآراء التي أبداها في تقريره .

اني أنقل فيما يلي بعض الفقرات الهامة من الكتاب المذكور لعلاقتها بموضوع القومية العربية والثقافة العربية بوجه عام [1]

لقد قلت في صدد انتقاد مشروع المركز الثقافي الخاص بالشرقين الأدنى والاوسط ما يلي :

« ان احداث امثال هذه المراكز الاقليمية من الامور التي يصعب تآلفها مع الروح التي كونت اليونسكو : لماذا نقدم على احداث « حظائر اقليمية » داخل نطاق اليونسكو ، مادمنا ندعو جميع امم الارض الى التعاون والتكاتف في ميادين العلم والتربية والثقافة ؟

« ان العلم بطبيعته عالمي فجميع الامم تستطيع ان تتعاون في هذا المضمار ، بدون اي تحفظ كان . ولكن التربية بطبيعتها قومية . وإنها تبقى قومية ، حتى عندما تستوحي اعمالها من

---

١ نص الكتاب الكامل في « آراء واحاديث في العلم والاخلاق والثقافة » (ص ١٦٣ - ١٨٠)

فكرة التفاهم الأنساني ، فتتغلغل في سبيل التعاون الاممي . وذلك لان الفكرة الاممية ترمي الى تنوير التربية وتوجيهها ، دون ان تنزع عنها صفتها القومية . ولهذا السبب نستطيع أن نؤكد ان التربية لا تستفيد شيئاً من احداث منظمة اقليمية متفرعة من منظمة اممية اذا قامت هذه المنظمة الاقليمية على اسس جغرافية ، لا قومية .

« واما الثقافة فانها تتألف من عناصر كثيرة ، قسم منها قوميّ وقسم آخر منها اميّ ، ولهذا السبب هي ايضاً لا تستفيد شيئاً من إحداث منظمة اقليمية . تنحشر بين المنظمات القومية والمنظمات الاممية .

« زد على ذلك أن الثقافة لا يمكن ان تأتلف ابداً بمنظمة قائمة على اسس جغرافية ، اذ يجب علينا ان نلاحظ — عندما نتكلم عن الثقافة — بانها تتلاعب بالمسافات ، ولا تخضع ابداً للتحديدات الجغرافية : لا بد انكم تعرفون جيداً — يا عزيزي هكسلي — ان بلاد المكسيك والارجنتين — مثلاً — قريبتان جداً من اسبانيا — من الوجهة الثقافية — بالرغم من عظم المسافات التي تفصل بينهما . في حين انه — بعكس ذلك — مدينة دوفر الانكليزية بعيدة جداً عن مدينة كاليه الفرنسية — من الوجهة الثقافية — بالرغم من ضيق القنال الذي يقرّبهما . وعلى هذا الاساس يجب ان تسلموا معي ، انه من الوجهة الثقافية : سوريا أقرب الى تونس منها الى تركيا ، والعراق اكثر جواراً الى مراكش منه الى ايران .

« أفلا يحق لي اذن ان اقول مستنداً الى هذه الحقائق التي لا يمكن لأحد ان ينكرها – : ان الاقدام على انشاء مراكز اقليمية – في قلب اليونسكو – مثل المركز المقترح للشرق الأدنى والاوسط ، يكون عملاً منافياً لطبيعة الاشياء ولمصالح اليونسكو ، في وقت واحد ؟ »

وبعد بعض التفاصيل الفرعية ، قلت :

« نحن العرب ، انضممنـــا الى منظمة اليونسكو ، وهي غير منقسمة الى حجر متحاجزة . ونتمنى لهذه المنظمة العالمية أن تتجنب مغبة الانقسام الى حجرات اقليمية . ومهما كان الامر ، فنحن لا نود ان نُحجز في حجرة خاصة ، ولا سيما في هذه الحجرة المشهورة التي تسمونها انتم باسم الشرق الادنى والأوسط . نحن نريد أن نتعاون مع جميع أمم العالم ، داخل منظمة اليونسكو – بصفتنا عرباً ، لا بصفتنا شرقيين ... »

« واما علاقاتنا الثقافية مع بعض الدول بوجه خاص ، فنحن نود أن نقوم بتنظيمها باتفاقات خاصة نعقدها بعد مذاكرات مباشرة ، كما فعلت ذلك ولا تزال تفعل جميع الدول الاوروبية والاميريكية . وذلك دون وساطة اليونسكو ، ودون مداخلة منظمة أقليمية متفرعة من اليونسكو . وبكلمة واحدة : نحـن نود ان يكون لنا داخل هذه المنظمة الامية موقف مماثل تمـــام المماثلة لمواقف الامم الاخرى ، مثـــل البلجيك والدانمرك ، وايطاليا ... »

ثم فندت مزاعم جوليان هكسلي من تعليل موقفنا بالتعصب

الديني وبالانعزالية الثقافية ، فقلت :

« ان قليلاً من التفكير الحيادي كان يكفي لاظهار الحقيقة بكل وضوح ، ولاقناعكم بان موقف الذين لم يحبذوا مشروع انشاء المركز العلمي لم يكن ناجماً عن تعصب ديني او انعزالية ثقافية ، بل انه ناجم عن فهم اصحّ لما يسمى الشرق والثقافة الشرقية ... »

وأعتقد ان الملاحظات التي سردتها آنفاً تكفي للبرهنة على الاخطاء العديدة التي تنطوي عليها فكرة الثقافة الشرقية — برهنة قاطعة .

٣

واما الذين لم يسلموا معي — في اللجنة الثقافية — بان فكرة الشرق الاوسط وليدة سياسة الدول الغربية ، فاميل الى الظن بانهم وجدوا في الوقائع التي حدثت بعد ذلك ما حملهم على تغيير رأيهم في هذا المضمار .

الا اني الاحظ في الوقت نفسه بان امثال هؤلاء كثيرون . فلا يزال كثير من المثقفين — في مختلف الاقطار العربية — غير منتبهين الى ما وراء فكرة الشرق الاوسط من دوافع سياسية ، والى ما وراء الاستسلام لها من اضرار قومية .

ولذلك رأيت ان اكشف الستار عن مصدر هذه التسمية وكتبت الفصل السابق ، وأعتقد ان فيه ما يكفي لتنوير الاذهان في هذه القضية الهامة . ومع هذا ، رأيت ان اشير هنا الى تصريحين

سياسيين ، لازالة كل آثار الشكوك التي قـــد تساور بعض الاذهان :

●

لقد كتب السير وينستون تشرشل في مذكراته عن الحرب العالمية الاخيرة ـ في ٢٦ آب (اغسطس) سنة ١٩٤٢ ـ ما يلي:

« ان المسائل التي كان يجب حلها الآن ، ما كانت تتنـاول أشخاص المناصب العليا فحسب ، بل كانت تشمل كل بناء القيادة في هذه الساحة الفسيحة من سوح العمليات الحربية . اني كنت اشعر على الدوام ان تسمية مصر والمشرق وتركيا باسم « الميدل ايست » ـ أي الشرق الاوسط ـ لم تكن من التسميات الموفقة ، فان هذه البلاد تؤلف الشرق الادنى ، وايران والعراق تؤلفان الشرق الاوسط ، وبلاد الهند وبرمانيا وماليزيا تؤلف الشرق . واما الصين واليابان ، فتؤلفان الشرق الاقصى » .

ولهذه الملاحظات ، رأى تشرشل ضرورة تقسيم قيـــادة الشرق الاوسط ، التي كانت بالغة التنوع ، وشديدة الميـل الى التوسع . ولذلك أصدر مساء ذلك اليوم التعليمات التالية :

« يعاد النظر في تنظيم قيادة الشرق الاوسط على أساس تقسيمها الى قيادتين منفصلتين ومستقلتين :

أ) ـ قيادة الشرق الادنى ـ شاملة مصر وفلسطين وسوريا على أن يكون مركزها القاهرة .

ب) ـ قيادة الشرق الاوسط ـ شاملة العراق وايران ، على ان يكون مركزها بغداد » .

يلاحظ من هذه الكلمات الصادرة من قلم ونستون تشرشل ، ان الابرة الموجهة لهذه التقسيمات والتقسيمات انما هي الحـــاجات الحربية التي تشعر بها الحكومة البريطانية .

فقد جمع تشرشل سوريا وفلسطين ومصر تحت اسم الشرق الادنى ، ولكنه فصل العراق عن هذه المجموعة وعن سائر البلاد العربية ، وادخله في نطاق الشرق الاوسط مـــع ايران. وكل ذلك ليس بناء على احوال هذه البلاد نفسها، انما بناء على المساعدة التي تنتظرها منها السياسة البريطانية ، خلال الحرب التي تخوض غمارها .

❁

ولكن ، بعد مرور نحو تسع سنوات على تاريخ كتابة هذه الكلمات واصدار هذه التعليمات ، سمع مجلس العموم البريطاني تصريحات رسمية تختلف عن ذلك اختلافاً تاماً ، فقد وجه احـد النواب الانجليز الى الحكومة السؤال التالي : « ما هي البلادالتي تدخل في نطاق الشرق الادنى، حسب الاصطلاحات الرسمية ؟»

فأجاب وكيل وزارة الشؤون الخارجية المستر دافيس على هذا السؤال بما يلي :

« ان تعبير الشرق الادنى الذي لازم السلطنة العثمانية يعتبر الآن في بريطانيا العظمى ممـــا فات أوانه في اللسان الرسمي ، ويستعاض عنه الآن بتعبير الشرق الأوسط . ومجموعة البلاد التي يشار اليها بهذا التعبير تشمل : مصر ، وتركيا، والعراق،وايران وسوريا ، ولبنان ، واسرائيل ، والعربية السعودية ، وامارات

الكويت ، والبحرين، وقطر، ومسقط، ومحمية عدن، واليمن».

وعندما سأله أحد النواب : « واليونان ؟ » ، أجابه مستر دافيس قائلاً : « اليونان تقع في مدار البحر الابيض المتوسط ».

يلاحظ ان هذا التصريح الرسمي الذي صدر عن لسان وكيل وزارة الخارجية سنة ١٩٥١ ، يخالف الرأي الذي كان صدر من قلم وينستون تشرشل سنة ١٩٤٢ : فقد قال تشرشل بلزوم فصل الشرق الادنى عن الشرق الاوسط . واما المتحدث الرسمي فقد قال — بعكس ذلك — بلزوم هجر تعبير الشرق الأدنى ، وجمع تلك البلاد كلها في منطقة واحدة ، تسمى الشرق الاوسط .

لماذا ؟ لماذا تغير رأي الحكومة البريطانية هذا التغير الكبير خلال تسعة أعوام ؟

ان الدوافع السياسية التي تطل برأسها في كل واحد من التعريفين المذكورين آنفاً ، تظهر وتبرز الى العيان ، عندما نستعرض الظروف ونستقصي الاسباب :

خلال سنة ١٩٤٢ ، كانت انجلترة تحارب مع روسيا ضد ألمانيا ؛ ولكنها سنة ١٩٥١ صارت تستعد للمحاربة مع المانيا ، ضد روسيا .

سنة ١٩٤٢ ، كانت انجلترة تحارب في البلاد الشرقية المذكورة في جبهتين مختلفتين . لهذا السبب رأت ان تقسم القيادة الى قيادتين مستقلتين . وتبريراً لذلك عززت فكرة الشرقين الادنى والاوسط .

ولكن خلال سنة ١٩٥١ ، صارت تضع خططها الحربية على اساس

جبهة واحدة . فلم تعدترى لزوماً الى تقسيم البلاد المذكورة الى منطقتين . بل بعكس ذلك ، صارت ترى ان مصلحتها تقضي باعتبار البلاد المذكورة منطقة واحدة ، لكي يسهل عليها حشد الجيوش ، وتموينها وسوقها ، حسب ما تستلزمه خططها العسكرية ، في الهجوم والدفاع .

ولهذا السبب هجرت بريطانيا العظمى تعبير الشرق الأدنى ، ووسعت مدلول الشرق الاوسط ، حتى جعلته يشمل مصر وايران وما بينهما من بلاد — من البحر الاسود الى المحيط الهندي ، اي من تركيا الى اليمن وحضرموت .

●

أعتقد ان هذه التفاصيل لا تترك مجالاً لأي شك كان في صحة ما قلناه آنفاً : ان هذه التقسيمات والتسميات لا تقوم على اساس من التاريخ أو من الجغرافية الطبيعية أو البشرية . إنما هي تقسيمات تتمشى مع سياسة الدول الغربية .

●

ومما يلفت النظر : ان فرنسا أشد البلاد الغربية تمسكاً بتعبير الشرق الادنى ، والولايات المتحدة الاميريكية أكثرها استعمالاً لتعبير الشرق الأوسط . واما بريطانيا فقد انتقلت من التعبير الأول الى التعبير الثاني ، خلال عقد واحد من السنين .

ولا أراني في حاجة الى القول بأن اسباب ذلك ، تعود الى مبلغ اهتمام كل واحدة من هذه الدول بكل قسم من أقسام البلاد المذكورة .

كما ألاحظ ان التعبير الثاني أخذ يتغلب على التعبير الأول ، ويقصيه عن الحلبة ، في كل انحاء العالم ، تبعـــاً لتغلب السياسة الاميريكية على السياسة الاوروبية .

استراتيجية الشرق الاوسط

سألني أحدهم ، يوماً :

ـ لماذا لا تلقى في معهد الدراسات العربية العاليـــة ، محاضرات عن استراتيجة الشرق الاوسط ؟

فأجبته على الفور :

ـ لاننا لا نعترف بوجود الشرق الاوسط . انما نقول بوجود العالم العربي ، وندرس هذا العالم .

واما ما يسمونه « استراتيجية الشرق الاوسط » فما هو ـ في نظرنا ـ الا : استراتيجية الدول الغربية في البـــلاد التي يطلقون عليها اسم الشرق الاوسط .

وحدة اللغة

و

وحدة القومية

obeikandl.com

obeikandl.com

١

لقد اثبتت الابحاث العلمية والاحداث السياسية أن اهم عناصر القومية ودوافعها هي : اللغة والتاريخ .

فاللغة بمثابة حياة الامة ، والتاريخ بمثابة شعورها ، وقد صارت الفكرة القومية – منذ اوائل القرن الماضي – من اهم الفكر القوانية idées forces التي غيرت وجه التاريخ ومجراه : لقد تفككت أوصال الامبراطوريات التي كانت تتألف من قوميات عديدة ، وبعكس ذلك اتحدت الدول والدويلات التي كانت تنتسب الى قومية واحدة ، فاكتسبت خارطة أوروبا السياسية – من جراء ذلك شكلاً جديداً ، يختلف عن شكلها القديم اختلافاً كلياً .

واما الامة العربية ، فقد تأخرت في الشعور بقوميتها الخاصة . وعندما انفصلت عن الدولة العثمانية ، انقسمت الى عدة وحدات سياسية بتأثير مناورات ومساومات الدول الاستعمارية ،

فتأخرت في الشعور بوحدتها القومية .

فقد آن الاوان ليدرك الناطقون بالضاد انهم ابناء امـــة واحدة ، على الرغم من تعدد دولهم في الحالة الحاضرة . وأن يعملوا لتكوين دولة موحدة، ليصبحوا أقوياء من جميع الوجوه: الثقافية ، والاقتصادية ، والعسكرية ، والسياسية .

٢

ان هذه الحقائق التي اصبحت من بديهيات التاريخ والسياسة لا تزال تصطدم – مع الاسف – بمعارضات متنوعـــة ، من وجوه عديدة .

ان معظم هذه المعارضات تأتي من المنافع الخاصة التي يجنيها بعض الرجال وبعض الطوائف من الاوضاع الحالية ، وبعضها يتقنّع بقناع « المعارضة الفكرية » .

وأهم هذه المعارضات الفكرية تحوم حول قضية « تأثير اللغة في تكوين القوميات » .

يقول معارضو فكرة الوحدة العربية « ان اللغـــة لم تكن العامل الاصلي في تكوّن الامم ، وتوحد الدول أو تفرقها ، ويستشهدون على صحة زعمهم هذا، بانفصال الاقطار الاميريكية عن انجلترة واسبانيا والبرتغال ، وعدم تفكك أوصال سويسرة وبلجيكا .

انهم يقولون :«ان الولايات المتحدة الاميريكية انفصلت عن انجلترة ، مع انها انكليزية اللغـــة ، واقطار اميريكا اللاتينية

انفصلت عن اسبانيا والبرتغال ، مع انها لا تختلف عنهما من حيث اللغة ، ثم ان هناك الدولة البلجيكية التي يتكلم سكانهـــا لغتين مختلفتين ، وهناك سويسرة التي يتكلم سكانها بثلاث لغات مختلفة »

اني بدأت اقرأ واسمع هذا اللون من المعارضة منذ ربع قرن وقد فندتها عدة مرات ، مستنداً الى الحقائق التاريخية .

ولكني لا أزال أرى واقرأ من يكررها ، كأنها أدلة حاسمة ضد فكرة الوحدة العربية .

وقد قرأت قبل مدة وجيزة ، حديثاً لاحد كبار المشتغلين بالقضايا العربية ، يعارض فكرة الوحدة العربية ، فيقول في جملة ما يقوله :

« ألا ترى ان كل اميريكا الوسطى والجنوبية تتكلم لغـــة واحدة ، وهي اللغة الاسبانية ، عدا البرازيل ، فهل تفكر دولة من هذه الدول ، في ان يكون الجميـــع تحت راية واحـــدة ورجل واحد ؟

« وهل تفكر البرازيل في الانضمام الى البرتغال ، وهي قد سعت في الانفصال عنها بحروب طاحنة ، كما سعت الامم اللاتينية في الانفصال عن اسبانيا ؟

وها هي ذى اميريكا ، الولايات المتحدة الاميريكية وانجلترة تتكلم جميعها لغة واحدة ، وهم انجلو سكسون ؛ فهل فكر أحد في تكوين دولة واحدة منهما ؟ »

ولذلك رأيت أن أعود الى هذه القضايا مرة اخرى ، على أن اعالجها هذه المرة بتفصيلات وافية ، مع شرح الحقائق التـاريخية

والاجتماعية التي كنت أكتفي بذكرها ، دون ان ارى لزوماً الى تفصيلها .

●

وقبل كل شيء أود ان الفت الانظار الى الحقيقة التالية : يستند المعارضون – في الحالة الحاضرة – الى أمثلة محدودة ، هي اميريكا ، بلجيكا ، وسويسرة .

ولكن ، يجب أن لا ننسى ان أمثال ذلك كان يتجاوز المائة قبل عصر واحد ، والخمسمائة قبل قرنين من الزمان .

إذ كانت المانيا الحالية منقسمة الى اكثر من اربعمائة دولة ودويلة . وكانت ايطاليا موزعة بين عشر وحدات سياسية . وكانت الامبراطورية النمساوية تحكم بلاداً يتكلم سكانها سبع لغات مختلفة . وكان عدد اللغات التي يتكلم بها سكان البلاد التابعة للسلطنة العثمانية يزيد على العشرة .

ولكن ... – منذ اوائل القرن التاسع عشر – اخذت جميع هذه الاوضاع تزول شيئاً فشيئاً . اتحدت الاقطار الايطالية ، وتوحدت الدول الالمانية ، تفككت اوصال الامبراطورية النمساوية ، وانحلت عناصر السلطنة العثمانية . فتكونت بهذه الصورة دول جديدة ، تقوم على اساس القومية ؛ وانحصرت الدول التي تبدو مخالفة لمبدأ القوميات ، في هذه الامثلة المحدودة التي يذكرها ، ويتبجح بها معارضو فكرة الوحدة العربية .

فيجدر بنا أن ندرس هذه الامثلة بتعمق كافٍ ، ونستقصي

العوامل المؤثرة في اوضاعها الحالية استقصاء وافياً ، لنرى : هل هي مخالفة حقيقة لمبدأ قيام الدول على اساس القوميـــات ، ـ ولنظرية تأثير اللغة في تكوين القوميات ـ أم ان مخالفتها هـذه ليست الا مخالفة ظاهرية ، مثل مخالفة بعض الحوادث الطبيعيـة لقانون الجاذبية الارضية ؟ !

من المعلوم ان ما نسميه الجاذبية الارضيـة يؤثر في جميـع الاجسام . فجميـع الاجسام تسقط نحو الارض ، ما لم تصادف مانعاً يوقفها في محلها ، ويمنعها من السقوط . ومع ذلك نشاهد بعض الظواهر الطبيعية التي تبدو مخالفة لقانون الجاذبية الارضية. فالدخان ـ مثلاً ـ يرتفع في الهواء، والطيور والفراشات وكثير من الهوام والحشرات تطير في الهواء . والصعّادات والطيارات تتباعد عن سطح الارض آلاف الامتار ، دون ان تسقط نحو الارض .

ولكننا نعرف ـ من الابحاث العلمية ـ ان كل هذه الحوادث الطبيعية ليست ـ في حقيقة الامر ـ مخالفة لقانون الجاذبية : فاذا كان الدخان يرتفع في الهواء ، والسبب في ذلك يعود الى كونه أخف من الهواء الذي يلاصق الارض ، فارتفاع الدخان في الهواء يتم بسبب الجاذبية الارضية نفسها ، وان بدا مخالفاً لها .

وكذلك الامر في طيران الطيور والطيارات : فانها ترتفع في الهواء ، بسبب قوة اخرى تعاكس الجاذبية الارضية وتتغلب عليها . انها تبقى تحت تأثير هذه الجاذبية حتى عنـدما تصعـد في

اتجاه شاقولي ، يعاكس اتجاه الجاذبية الارضية تمام المعاكسة .

●

والتفاصيل التالية ، ستبرهن على ان الامثلة التي يحـــاول الاستشهاد بها معارضو فكرة الوحدة العربية كلها من هذا القبيل. انها لا تدل على عدم تأثير اللغات في قيام الدول وتكوين القوميات بوجه من الوجوه .

obeikandl.com

مثال : الولايات المتحدة الاميريكية

يقول المعارضون : لو كانت اللغـــات اساس القوميات حقيقة ، لمـــا انفصلت الولايات المتحـدة الاميريكية عن المملكة البريطانية لانها انجليزية اللغة مثلها . ولكني – رداً على هذا القول – ألفت الانظـار الى حقيقتـــين هامتين ، يجب ان لا تغربا عن البال عند بحث هذه القضية ومناقشتها :

١

الحقيقة الاولى التي يجب ان تؤخذ بنظر الاعتبار في هـذا المضمار تتعلق بتاريخ حدوث الانفصال ، وبالاحوال التي كانت تسود العالم في ذلك التاريخ :

من المعلوم ان الولايات المتحدة الاميريكية انفصلت عن المملكة البريطانية ، في بداية الربع الرابع من القرن الثامن عشر : سنة ١٧٧٦

في ذلك التاريخ ، كان العالم بأجمعه بعيداً عن التفكير في أمر القوميات وفي مبدأ سيادة الشعوب. كانت البلاد تعتبر من ممتلكات الملوك والامراء ، وكثيراً ما كانت تنتقل من حكم الى حكم ، ومن مملكة الى مملكة عن طريق الارث أو الصداق ، أو البيع والشراء ، فضلاً عن الحرب والاستيلاء . كانت المانيا منقسمة الى أكثر من أربعمائة دولة ، وكانت اسبانيا تحكم هولندا من جهة ، وصقلية من جهة اخرى . وكان السويسريون يعرضون خدماتهم العسكرية على هذه الدولة او تلك ، كما يعرض العمال والكتاب والمهندسون خدماتهم — في عصرنا هذا — على هذه المؤسسة أو تلك . وكان بعض الملوك في المانيا يجندون جماعة من رعيتهم ويدربونهم على فنون الحرب والقتال ، ثم يبيعونهم الى الدول التي تحتاج الى جيوش ، كما تباع الامتعة والمنتجات .

ومن البديهي ان ما حدث في تلك الازمنة ، وفي تلك الظروف لا يجوز ان يعتبر دليلاً على أيّ شيء كان في قضايا القوميات .

ان نظرة سريعة الى الاسباب التي ادت الى انفصال الولايات المتحدة الاميريكية عن المملكة البريطانية تزيدنا تأكداً من هذه الحقيقة .

ان اهالي المستعمرات الثلاث عشرة التي كوّنت النواة الاولى للولايات المتحدة الاميركية ، كانوا هاجروا الى تلك البلاد ، تخلصاً من الاضطهادات الدينية والسياسية التي كانت تسود القارة الأوروبية وسعياً وراء حياة حرة ، مصونة من أنواع الظلم والاعتساف . انهم كانوا تركوا اوطانهم الى تلك البلاد النائية وتكبدوا مشاق الاغتراب في تلك البيئات الجديدة ليوجدوا مجتمعاً أفضل من المجتمع الذي كانوا نشأوا فيه .

والحكومة البريطانية تركتهم في بادىء الامر يعيشون هناك احراراً كما يشاؤون الا انها – بعد مرور مدة من الزمن – أخذت تستغل جهود هؤلاء المغتربين ، لمصلحة طائفة من المتمولين الباقين في بلادهم الأصلية : صارت تفرض عليهم ضرائب جائرة ، وأوصلت الامر الى حد منعهم من الاتجار مع البلاد المجاورة لهم واجبارهم على التعامل مع التجار المقيمين في الجزر البريطانية على وجه الانحصار .

ان ذلك كان يضعهم في وضع أتعس من الوضع الذي كانوا عليه في بريطانيا العظمى قبل هجرتهم الى امريكا ، من عدة وجوه . هناك كان قد تأسس نوع من الحياة النيابية ، وكان قد تقرر ان لا يفرض على الناس أية حزبية ، ما لم يوافق عليها ممثلو الشعب . ولكن الآن ، في المهاجر الاميركية صارت تفرض عليهم الضرائب ، دون أن يؤخذ رأيهم فيها . وصار نشاطهم الاقتصادي يقيد بقيود جائرة ، لمصلحة طائفة من اصحاب الجشع الباقين في بلادهم الأصلية .

فكان من الطبيعي أن يحتجّ هؤلاء على هذه الاوضاع . انهم لم يطلبوا – في بادىء الأمر – الانفصال عن المملكة البريطانية . بل بعكس ذلك ظلوا يؤكدون ولاءهم للعرش . انما كانوا يطالبون بالتمتع بالحريات والحقوق المعتادة في بريطانيا نفسها . ولكن الحكومة البريطانية لم تلتفت الى تلك المطالب . بل اقدمت على ارسال قوى عسكرية ، بغية اخضاع سكان تلك المستعمرات لاوامر السلطة المركزية الجائرة .

عندئذ أدرك هؤلاء ، ان السبيل الوحيد للتخلص من هذه القيود الاعتسافية ، هو الانفصال والاستقلال .

ومما يلفت النظر ان الشخص الذي تحمس لفكرة الانفصال أشد التحمس ، وبذل في سبيل الدعوة الى هذه الفكرة أعظم الجهود كان ممن انتقلوا الى امريكا في وقت قريب جداً : ان مدة اقامة « طوماس باين » في اميريكا عند اعلان الاستقلال كانت عبارة عن سنة واحدة وثلاثة أشهر فحسب . انه كان يقول : من العبث أن نأمل اصلاح الاحوال من الحكومة القائمة في بريطانيا العظمى . فعلينا أن ننفصل عنها ، ونكوّن جمهورية انجليزية في القارة الاميريكية ، علينا ان نعطي المثال الفعلي لحضارة أمثل ، ولحكومة خالية من ضروب الظلم والفساد .

ويظهر من كل ذلك : ان حركة انفصال تلك المستعمرات كانت بمثابة ثورة داخلية ، ثورة على الظلم والاستبداد ، مثل ثورة كرومويل التي كانت سبقتها قبل مدة ، ومثل ثورة الفرنسيين التي ستعقبها بعد نحو ثلاثة عشر عاماً .

انها لم تكن من نوع الحركات الاستقلالية القومية ، التي ترمي الى تحرير الامم المحكومة من نير الامم المسيطرة عليها . بل انها كانت من نوع الثورات التي لا تستهدف شيئاً غير تخليص الناس من اعتساف الحكام .

ولا شك في ان الاوضاع الجغرافية ايضاً لعبت دوراً هاماً في انتهاء هذه الثورة الى تكوين دولة جديدة : اذ من المعلوم ان اميريكا منفصلة عن أوروبا وعن الجزر البريطانية انفصالاً جغرافياً ، بواسطة المحيط الاطلسي الفسيح . ولا حاجة الى القول ان هذا الانفصال الجغرافي كان شديد الاثر في ذلك العهد ، لان السفن التجارية لم تكن قد اخترعت بعد . فالمواصلة بين أوروبا واميريكا كانت تتم بواسطة السفن الشراعية ، فتستغرق عدة اسابيع ، تتعرض خلالها الى شتى المشاكل والاحداث .

وعلى كل حال ، نستطيع ان نقول – بناء على كل ما تقدم – : ان انفصال الولايات المتحدة الاميريكية عن المملكة البريطانية ، كان قد حدث في ظروف تاريخية وجغرافية خاصة ، فلا يمكن أن يتخذ دليلاً على عدم تأثير اللغة في تكوين القوميات ، وفي اتحاد الدول او انفصالها .

●

ولكن ... قد يقال : اذا كانت الولايات المتحدة الاميريكية قد انفصلت عن المملكة البريطانية ، لمثل هذه الاسباب العارضة في الربع الأخير من القرن الثامن عشر ... فلماذا لم تعد وتتحد معها في القرن التاسع عشر ، بعد انتشار

مبدأ القوميات ؟

ان جواب هذا السؤال سيتضح من الحقيقة الثانية التي اردت إلفات الانظار اليها :

٢

والحقيقة الثانية التي يجب ان تؤخذ بنظر الاعتبار في هذا المضمار تتعلق بـ « لغة الولايات المتحدة الاميريكية » :

فان القول بان الولايات المتحدة المذكورة انجليزية اللغة مثل بريطانيا العظمى لا ينطبق على حقائق الامور انطباقاً تاماً، لأن الانجليزية لم تصبح اللغة البيتية لدى معظم سكان الولايات المتحدة الاميريكية ، الا بصورة تدريجية ، وفي وقت قريب نسبياً .

نظرة سريعة الى تطور حدود الولايات المتحدة الاميريكية وأحوال سكانها تكفي لاظهار هذه الحقيقة بكل وضوح وجلاء:

ان مجموع سكان الولايات المتحدة الاميريكية سنة ١٧٩٠ – أي بعد مرور أربعة عشر عاماً على اعلان الاستقلال – كان يقل عن أربعة ملايين : ٣،٩٢٩،٢١٤ ولكن هذا المجموع وصل – سنة ١٩٤٠ – الى ١٣٤ مليوناً ، وذلك يعني : انه أصبح – خلال مائة وخمسين عاماً – ثلاثة وثلاثين ضعف ما كان عليه في بادىء الامر .

وبديهي ان هذا التزايد الهائل لم يكن نتيجة لتكاثر السكان عن طريق التناسل ، انما كان نتج عن توسع رقعة الاراضي من

ناحية ، وتوافد المهاجرين من ناحية اخرى .

فان عدد الولايات المتحدة كان ١٣ عند اعلان الاستقلال ولكنه قد انضم اليها شيئاً فشيئاً ٣٥ ولاية اخرى .

وكانت الولايات المتحدة عند اعـــلان الاستقلال منحصرة بالأراضي الواقعة بين سواحل المحيط الاطلسي وبين جبال الآلفاني ولكن حدود هذه الولايات المتحدة أخذت تزحف نحو الغرب ، حتى بلغت في آخر الأمر سواحل المحيط الهادىء .

ان توسع حدود الولايات المتحدة بهـــذه الصورة ، قد تم بوسائل مختلفة ـ من الشراء الى الاستيلاء والاستعمار . والخريطة المدرجة في الصفحة التالية تبين مراحل هذا التوسع ، وتظهر الفرق العظيم بين ما كانت عليه الحدود عند اعلان الاستقلال ، وبين ما وصلت اليه خلال قرن من الزمان .

ومما تجب ملاحظته ان البلاد التي انضمت الى الولايات المتحدة الاميريكية بهـــذه الصور المختلفة لم تكن من المستعمرات الانجليزية ، مثل الولايات المتحدة الاولى . بل كانت فرنسية ، واسبانية ، ومكسيكية . . . نشأت في ظروف تختلف عن ظروف نشأة الولايات الاصلية . وكان الاختلاف يشمل اللغات ايضاً .

ولكن اختلاف اللغات قد زاد بوجه خاص من جراء اختلاف البلاد التي نزح منها المهاجرون الى الولايات المتحدة الاميريكية بعد اعلان استقلالها .

ويتبين من الاحصاءات الرسمية ان مجموع المهاجرين الذين توافدوا على الولايات المذكورة ـ من سنة ١٨٢٠ حتى سنة ١٩٤٠

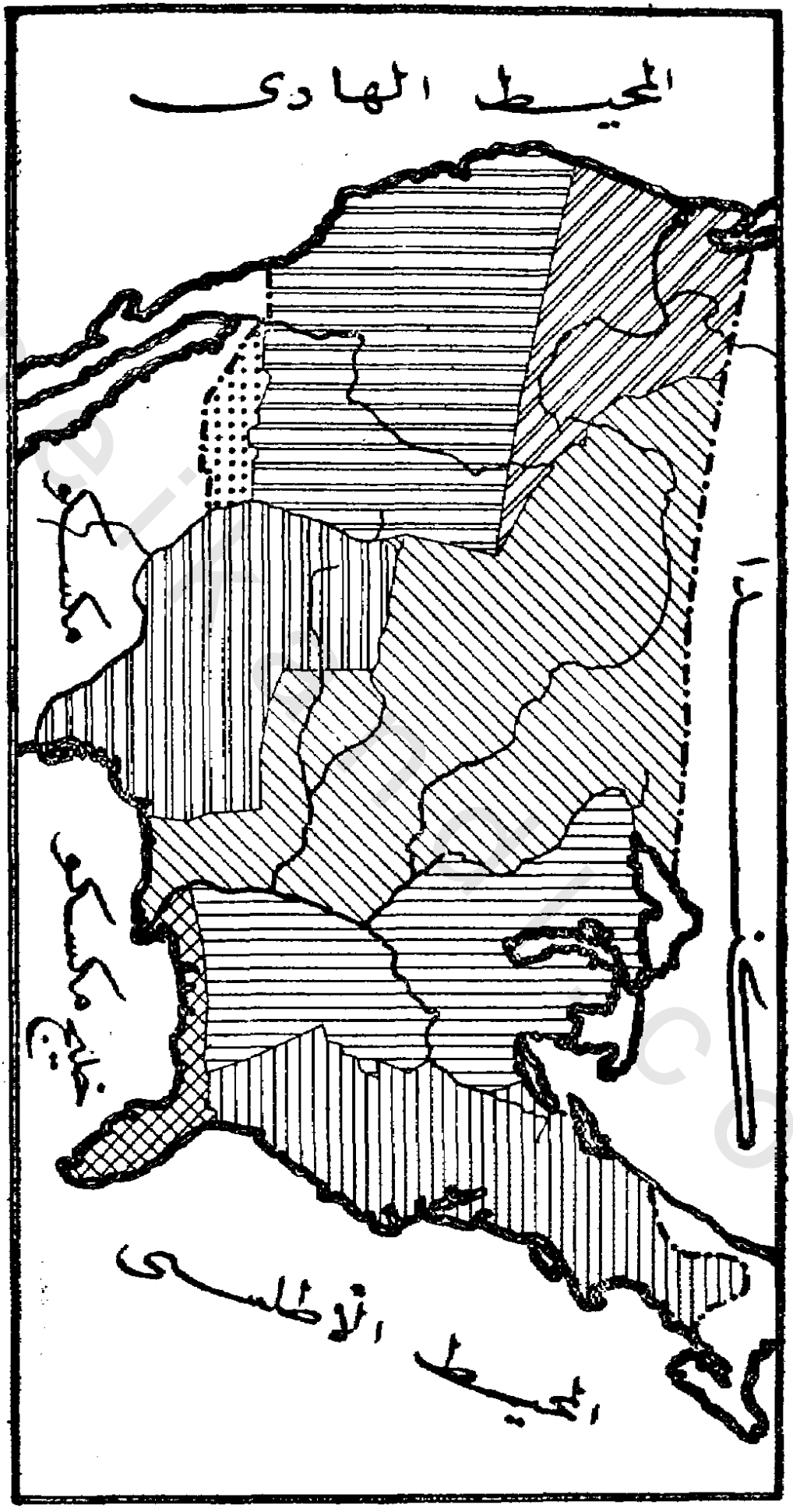
المحيط الهادى
المكسيك
خليج المكسيك
المحيط الأطلسى

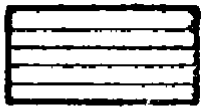
الولايات الثلاث عشرة

الحقت سنة ١٧٨٣

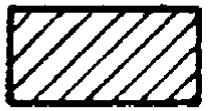
اشتريت من فرنسا سنة ١٨٠٣

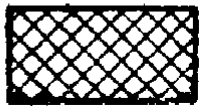
اشتريت من اسبانيا سنة ١٨١٩

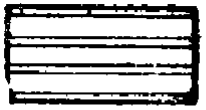
الحقت سنة ١٨٤٥

الحقت سنة ١٨٤٦

انتقلت من مكسكو سنة ١٨٤٨

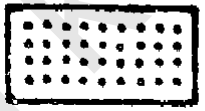
اشتريت من مكسكو سنة ١٨٥٣

obeikandl.com

أي : خلال مائة وعشرين عاماً – كان نحو ٣٨ مليوناً . واما عدد الانجليز بين هؤلاء المهاجرين فكان لا يزيد على العشر الا قليلًا ، لأن مجموع هؤلاء كان ٤،٢٥٥،١٠٠ في حين ان مجموع النازحين من كل من المانيا ، وايطاليا ، وايرلندا .. كان يزيد على ذلك كثيراً .

ولزيادة الايضاح ، ندرج فيما يلي مجموع المهاجرين الذين توافدوا على الولايات المتحدة الاميريكية من اهم البلاد الاوروبية ، خلال هذه المدة :

المهاجرون من	المانيا	٦،٠٢١،٩٥١
«	« ايطاليا	٤،٧١٩،٢٢٣
«	« ايرلندا	٤،٥٩١،١٠٠
«	« بريطانيا	٤،٢٥٥،١٠٠
«	« النمسا والمجر	٤،١٤٣،٧٧٥
«	« روسيا	٣،٣٤٩،٣٤١
«	« السويد	١،٢١٧،٤٤٨
«	« النورويج	٨٠٤،٨٥٢
«	« فرنسا	٥٩٤،٩٩٨

واما مجموع المهاجرين الذين نزحوا من سائر البلاد الاوروبية الى الولايات المتحدة الاميريكية – من بولندا والدانمرك الى البرتغال وسويسرة واليونان – فقد زاد على المليونين .

وفضلًا عن ذلك كله ، قد دخل الولايات المتحدة الاميريكية – خلال المدة المذكورة – اكثر من مليون مهاجر من بعض

الاقطار الاسيوية - كالصين واليابان والهند .

ولاعطاء فكرة أتم عن العناصر التي دخلت في تكوين الولايات المتحدة الاميركية، يجب ان نضيف الى كل ذلك، ملايين الزنوج الذين نقلوا الى الولايات المذكورة من مختلف الاقطار الافريقية (يبلغ عدد الزنوج في الولايات المتحدة اثني عشر مليوناً) .

ومن الطبيعي ان جميع هؤلاء المهاجرين كانوا يحملون معهم الى الولايات المتحدة الاميركية لغاتهم الخاصة ، وتقاليدهم القومية ، ومشاعرهم التاريخية انهم كانوا يتعلمون الانجليزية ، ويستعملونها في جميع معاملاتهم التجارية ومراجعاتهم الرسمية ، ومع هذا كانوا يرجعون الى لغاتهم الاصلية في شؤونهم ومحاوراتهم البيتية .

واما تأمرك المهاجرين اجتماعياً ، وتأنجلزهم لغوياً ، فما كان يتم الا بعد مرور جيلين او ثلاثة اجيال .

واذا لاحظنا ان المهاجرة من البلاد المذكورة كانت تتم بصورة تدريجية ، وتتوالى بدون انقطاع ، علمنا ان اللغات المختلفة التي كانت تدخل الولايات المتحدة مع المهاجرين ، ما كانت تترك محلها الى اللغة الانجليزية الا بعد مرور مدة طويلة وبتدرج كبير قبل ان يتم تأنجلز جماعة من المهاجرين القدماء ، كانت تتوافد على الولايات المتحدة جماعات جديدة من المهاجرين ، تديم حياة اللغات الاصلية في البيوت وفي المجتمعات الخاصة .

وربما كانت اوضاع الجاليات العربية في مختلف البلاد

الاميركية ، من اوضح الادلة على ما قلناه آنفاً :

* كلنا نعلم ان المغتربين العرب يتكلمون في بيوتهم وفي ما بينهم باللغة العربية . فلا تصبح الانجليزية اللغة البيتية عند هؤلاء المهاجرين ، الا بعد مرور جيلين كاملين ، على أقل تقدير .

* كما نعلم انه قد ظهر بين الجاليات العربية التي استوطنت الاقطار الاميركية ، ادباء وشعراء ، نشروا الجرائد والمجلات حتى انهم أوجدوا مدرسة أدبية اشتهرت باسم « ادب المهجر » ، ولعبت دوراً هاماً في تطور الادب العربي وتقدمه .

* وطبيعي ان ما حدث لمهاجري العرب في هذا المضمار ، كان يحدث للمهاجرين الاوروبيين . وكثيراً ما كان يظهر ذلك بشدة اعظم ، عند صنوف المهاجرين الذين كانوا اكثر عدداً بكثير من مهاجري العرب ، وأرقى ثقافة منهم ، وأشد تضامناً .

ولذلك كله ، نستطيع ان نقول : ان الولايات المتحدة الاميركية كانت بمثابة بوتقة صبت فيها جماعات كبيرة من قوميات مختلفة ولغات متنوعة على توالي السنين . واما تمازج هؤلاء وانصهارهم التام ، فلم يتم الا شيئاً فشيئاً .

فلا يجوز لنا ان نقول عن الولايات المتحدة الاميركية ، انها « انجليزية اللغة » .

ان هذه الحقيقة تتجلى بوضوح أشد عندما نستعرض الاحصاءات المتعلقة بأوائل القرن الذي نعيش فيه الآن : لقد تدفق المهاجرون من مختلف البلاد الاوروبية الى الولايات المتحدة الاميركية - منذ بدء القرن الحاضر حتى نشوب الحرب العالمية

الاولى – بمعدل مليون كل سنة . وان مجموع المهاجرين الذين انتقلوا الى الولايات المذكورة – من ١٩٠١ حتى سنة ١٩١٤ كان نحو ثلاثة عشر مليوناً: ١٢٨٩٩٧٠١ .

ولا حاجة الى القول ان هؤلاء يجب ان يعتبروا من المعاصرين لان طائفة كبيرة منهم لا تزال على قيد الحياة . كما ان القسم الاعظم من اولاد هؤلاء لا يزالون يعيشون الان .

ويتبين من احصاءات سنة ١٩٣٠ * ، ان عدد الاميركان البيض المولودين خارج الولايات المتحدة كان ١٣،٩٨٣،٤٠٥ واما عدد المولودين من امر غير اميريكية الأصل فكان يناهز ضعف هذا العدد .

كما يظهر من الاحصاءات المذكورة ان مجموع سكان الولايات المتحدة الذين لم يكونوا انجليزيي اللغة كان في السنة المذكورة – نحو خمسة وعشرين مليوناً ...

وكانت لغة نحو خمسة ملايين من هؤلاء الألمانية ولغة نحو اربعة ملايين منهم الايطالية ، ولغة نحو مليونين الاسبانية ...

---

* ومما تجدر الاشارة اليه ان الولايات المتحدة الاميريكية غيرت سياستها المتعلقة بالمهاجرة تغييراً جوهرياً ، بعد هذا التاريخ ، بوجه خاص . فانها بعد ان كانت تسعى الى اجتذاب المهاجرين بشتى الصور والاساليب صارت تقيد الهجرة بقيود شديدة . وحددت المقدار الذي ستقبله كل سنة ، بالنسبة الى كل قومية على حدة وذلك بناء على تجاربها وابحاثها السابقة ، مع ملاحظة مبلغ استعداد كل قومية للاندماج السريع او لمقاومة الاندماج .

٣

يتبين من كل ما تقـــدم ، ان سكان الولايات المتحـــدة الاميركية قد تكوّنوا تكوّناً خاصاً ، خلال مدة قرن وثلاثة ارباع القرن ـ تحت ظروف استثنائية ، لا مثيل لهـــا في سائر انحاء العالم .

فليس من المعقول أن نستشهد بقضية انفصال الولايات المذكورة عن المملكة البريطانية لتبرير بقاء الامة العربية منقسمة الى دويلات عديدة .

فان مما لا شك فيه ، ان احوال البلاد العربية تختلف عـن ظروف الولايات المذكورة اختلافاً كبيراً ، من وجوه عديدة :

ان البلاد العربية متحدة اللغة منذ قرون عديدة . ولها تاريخ مشترك طويل ، وأفكارها متصلة بعضها ببعض اتصالاً جغرافياً تاماً ، فلا يوجد بينها فاصل يشبه المحيط الاطلسي الفسيح الذي يفصل اميركا عن أوروبا .

وخلاصة القول : لا يوجد في احوال البلاد العربية ما يماثـل العوامل التي ادت الى انفصال الولايات المتحدة عن المملكـــة البريطانية ، والتي استوجبت استمرار هذا الانفصال .

فاتخاذ تاريخ هذه الولايات ذريعة لمعارضة الفكرة القائـــلة بوحدة الامة العربية ، وللحيلولة دون الدعوة الى توحيد البلاد العربية ... لا يتفق مع العقل والمنطق بوجه من الوجوه .

●

هذا ، واني استغرب كل الاستغراب ، سلوك المعارضـين

الذين يحاولون ان يستخرجوا من أحوال الولايات المتحـــدة الاميريكية وتاريخها درساً في تبرير الانفصال ، دون ان يلتفتوا الى الدروس العديدة والهامة التي تتدفق من تلك الأحوال وذلك التاريخ في الاتحاد .

لاني اعتقد ان تاريخ الولايات المتحدة الاميريكية من أحسن الأمثلة على مكافحة عوامل التفرقة ، ومن اقوى الادلة على فوائد الاتحاد : بلاد واسعة الأرجاء، متنوعة الاقاليم، تمتد من سواحل المحيط الاطلسي الى سواحل المحيط الهادي . بلاد مسكونـــة بعشرات الملايين من النفوس الآتين من مختلف اقطار العالم ، حاملين معهم لغات مختلفة وتقاليد متنوعة ونزعات متضاربة . ومع ذلك فقـــد استطاعت الولايات المتحدة الاميريكية أن تكوّن من جميع هذه العناصر في جميع تلك البلاد ، امـــة متضامنة ، تحت راية واحدة .

ولا شك في ان اهم الدروس التي يجب ان تستخلص مـن مثال الولايات المتحدة الاميريكية ، هو هذا الاتحاد : الجهود العظيمة التي بذلت لضمان هذا الاتحاد ، والقدرة الهائـــلة التي نتجت عن هذا الاتحاد .

فلا ادري لماذا يريد البعض من كتابنا ومفكرينا ، ان يتوقفوا عند الانفصال الذي حدث في بداية تاريـــخ الولايات المتحدة الاميريكية ، ولا يلتفتوا الى الحركات والاعمـــال التوحيدية الهامة التي تتجلى في صحائف ذلك التاريخ ؟

مثال اميركا اللاتينية

١

ان الحقائق التي مر دناها آنفاً – عند مناقشة مثال الولايات المتحدة الاميركية – ، تغنينا عن إطالة البحث في أمر اميريكا اللاتينية . فان سكان هذا القسم من القارة الاميريكية ايضاً قد تكوّنوا تكوّناً خاصاً ، تحت ظروف استثنائية جداً ، تشبه ظروف تكوّن سكان الولايات المتحدة الاميريكية، من وجوه عديدة :

لقد توافد على اميريكا الوسطى والجنوبية أيضاً ؛ ملايين من الرواد والمهاجرين ، من مختلف أنحاء العالم ، ولا سيما من مختلف أقطار القارة الأوروبية . وتوالت هذه المهاجرة – منذ اكتشاف تلك البلاد – بدون انقطاع . واشتدت بوجه خاص بعد استقلالها عن اسبانيا والبرتغال – الذي تمّ بين سنة ١٨١٠ –

و ١٨٥٠ – واستفحل بكل معنى الكلمة منذ بداية هذا القرن...

فما قلناه آنفاً عن الولايات المتحدة الاميركية في هـذا المضمار ينطبق على اميركا اللاتينية ايضاً تمام الانطباق.

ومما تجدر الاشارة اليه، ان تركيب السكان في اميركا اللاتينية صار اشد تعقيداً منه في الولايات المتحدة الاميركية، وذلك من جراء اختلاط المهاجرين الاوروبيين بالسكان الاصليين.

في الولايات المتحدة الاميركية، لم يلعب الهنود الحمر دوراً يستحق الذكر في تركيب السكان. لأن الاوروبيين الذين استعمروا تلك البلاد واستوطنوها، كانوا يهاجرون مع اسرهم وزوجاتهم، فلم يضطروا الى مخالطة نساء الهنود. واعمال الاستعمار والاستيطان هناك ادت الى إفناء القسم الأعظم من السكان الاصليين، وحصرت بقيتهم الباقية في مناطق محدودة جداً في بعض الولايات.

وقد اهتمت الولايات المتحدة الاميركية بمبدأ عدم الاختلاط بالسكان الأصليين اهتماماً بالغاً، وسنت القوانين التي تحظر زواج السكان البيض بالهنود الاحمر، وتعتبره باطلاً حتى ان القوانين الموضوعة في بعض الولايات اعتبرت الاتصال الجنسي بنساء الهنود – ولو كان بدون زواج – من الجرائم التي تعرض مرتكبيها الى العقاب.

ولذلك كله لم يتكوّن في الولايات المتحدة الاميركية طبقة من الهجناء.

ولكن الامور سارت سيراً مخالفاً لذلك كل المخالفة في اميريكا الوسطى واميريكا الجنوبية : فان الأوروبيين الذين استعمروا تلك البلاد واستوطنوها كانوا – بوجه عام – من المغامرين الجشعين الذين لا يفكرون في شيء غير الثراء الفاحش السريع . فما كانوا يستصحبون معهم نساءهم خلال هجرتهم ، فيضطرون الى التزوج بنساء السكان الأصليين ، أو يعاشرونهن معاشرة الازواج ؛ وينجبون منهن عدداً كبيراً من الاطفال . وكثيراً ما كانوا يعودون الى بلادهم – حاملين معهم ما كانوا حصلوا عليه من ثروة طائلة – ويتركون وراءهم جيلاً من الهجناء .

ولا حاجة الى القول : ان الاطفال الذين يتولدون من آباء أوروبيين وامهات هنديات اميريكيات.. تحت هذه الظروف – كانوا ينشأون ويترعرعون في احضان امهاتهم . ولهذا السبب كانوا يتأثرون من عادات الهنود ونزعاتهم ولهجاتهم أشد التأثر وأعمقه .

ان هذه الأحوال الخاصة أدت الى تكوين صنف خاص من السكان .

وإذا لاحظنا ان السكان الأصليين كانوا يختلفون عن المهاجرين الأوروبيين اختلافاً هائلاً – من حيث الأوصاف الرسمية والجثمانية ومن حيث النزعات العقلية والاجتماعية ومن حيث المستويات الحضارية – قدّرنا عظم النتائج التي نجمت عن هذا التخالط السريع والتصالب الواسع النطاق .

في الواقع ان زواج المهاجرين الاوروبيين من السكان الأصليين قل كثيراً منذ قرن من الزمان . الا ان زواجهم بالهجينات ، وزواج الهجناء فيما بينهم ، قد عم واستفحل ، فأصبح الهجناء يؤلفون الاكثرية الساحقة من السكان .

ويظهر من الاحصاءات الرسمية الاخيرة ، ان مجموع السكان في اميريكا اللاتينية يبلـــغ ١٢٥ مليوناً . وينقسم هؤلاء الى العناصر الأساسية التالية :

٧٠ مليوناً هجناء (من اختلاط الأوربيين بالهنود الاميريكيين)
٢٠ « أوروبيون .
١٩ « هنود ـ اميريكيون .
١٦ « زنوج وهجناؤهم .

يلاحظ من ذلك ان الأوروبيين الخلص يقلون عن سدس مجموع السكان .

٣

ومما يلفت النظر : ان نسبة كل واحد من هـــذه العناصر الاساسية الى مجموع السكان تختلف اختلافاً كبيراً من قطر الى قطر ، ومن دولة الى دولة في اميريكا اللاتينية .

فان نسبة المهاجرين الأوربيين الى مجموع السكان تتراوح بين ٩٥ في المائة و٦ في المائة : يؤلف المهاجرون الأوروبيون ٩٥ في المائة من مجموع السكان في الارجنتين ، و٩٠ في المائة في كوستاريكا ولكن نسبتهم الى مجموع السكان تنزل الى ٥٠ في المائة في البرازيل

والشيلي ، والى ٢٥ في المائة في كولومبيا ، والى ١٠ في المائة في كل من المكسيك والاكوادور وفنزويللا وباناما ، وباراغواي فلا تتجاوز الى ٧ في المائة في غواتيمالا ، و ٦ في المائة في كل من هوندوراس ونيكاراغوا .

واما نسبة الهجناء الى مجموع السكان فتتراوح بين ٧٥ في المائة وبين ٤ في المائة . انهم يؤلفون ٧٥ في المائة من مجموع السكان في باراغواي ونيكاراغوا ، و٧٠ في المائة في السان سالوادور ، و٦٠ في المائة في المكسيك و٥٣ في المائة في كل من غواتيمالا وبيرو ، و٢٥ في المائة في بوليفيا ، و ١٤ في البرازيل ، و١٠ في المائة في كورستاريكا و٤ في المائة فقط في الارجنتين .

واما الهنود الخلص ، فانهم يؤلفون ٦٠ في المائة من مجموع السكان في بوليفيا، و٥٥ في المائة في غواتيمالا ، و٥٠ في المائة في البيرو ، و٣٠ في المائة في المكسيك وفي الاوروغواي ، و٢٠ في المائة في باراغواي . ولكن هذه النسبة تنزل الى ٥ في المائة في نيكاراغوا، والى٢ في المائة في البرازيل، و١ في المائة في الارجنتين .

ونسبة الزنوج وهجنائهم الى مجموع السكان ، فانها نحو ٩٣ في المائة في كوبا، و٣٤ فى البرازيل، و٣٠ في المائة في كل من باناما وكوستاريكا ، و٢٥ في فنزويللا ، و١٤ في المكسيك ، و١٠ في البيرو، و٨ في كولومبيا .

ولا يوجد هنود ـ خلص او هجنـــاء في كوبا وهـــايتي واوروغواي ،ولا يوجد زنوج في الارجنتين وبوليفياوالمكسيك وباراغواي ، وسان سالفادور .

ان الجدول المدرج في الصفحة التالية يوضح ترتيب السكان

	مجموع السكان بالملايين	النسبة المئوية الى مجموع السكان						الاميون بالنسبة الى مجموع السكان
		مهاجرون من بلاد		هنود امريكيون		زنوج		
		لاتينية اللغة	غير لاتينية اللغة	خلص	هجناء	خلص	هجناء	
البرازيل	٤٨٫١	٣٠	٢٠	٢	١٤	١٤	٢٠	٧٠ ٪
المكسيك	٢٥٫٧	٦	٤	٣٠	٦٠	—	—	٦٠ ٪
الارجنتين	١٨	٦٠	٣٥	١	٤	—	—	٢٠ ٪
كولومبيا	١٠٫٥	٢٠	٥	١٨	٤٩	٣	٥	٦٠ ٪
بيرو	٧٫٩	١٠	٣	٥٠	٣٥	٢	—	٧٠ ٪
شيلي	٥٫٦	٣٠	٢	١٠	٤٠	—	—	٢٥ ٪
كوبا	٥٫٢	٥٠	٢٠	—	—	٢٠	١٠	٣٠ ٪
فنزويلا	٤٫٥	٦	٤	٢٠	٤٥	٥	٢٠	٨٠ ٪
بوليفيا	٣٫٨	٩	٦	٦٠	٢٥	—	—	٧٥ ٪

في أهم دول اميركا اللاتينية ، ويظهر للعيان مبلـــغ اختلاف هذه الدول من حيث عناصر السكان .

ويلاحظ من أرقام الجدول المذكور ، ان الاوروبيـــين المستوطنين في البلاد التي تسمى باسم « اميريكا اللاتينية » ، لم يأتوا كلهم من بلاد لاتينية اللغة ، بل يوجد بينهم عدد لا يستهان به من المهاجرين الوافدين من بلاد غير لاتينية .

ففي البرازيل مثلاً يؤلف الأوروبيون ٥٠ في المائة من مجموع السكان . الا ان عدد الذين هاجروا من بلاد لاتينية اللغة لا يتجاوز الـ ٣٠ في المائة .

وفي المكسيك يؤلف الاوروبيون ١٠ في المائة من مجموع السكان . وقد هاجر ٦ في المائة منهم من بلاد لاتينية اللغة ، و ٤ في المائة منهم من بلاد غير لاتينية اللغة .

ومن المعلوم ان البلاد التي تعتبر لاتينية اللغة هي : اسبانيا ، والبرتغال ، وايطاليا ، ورومانيا . فلا حاجة الى القول ، ان نسبة الاسبان في المكسيك ، ونسبة البرتغال في البرازيـل ، تقل كثيراً عن المقادير المذكورة آنفاً .

ويظهر من كل ذلك ، ان هذه الأقطار الاميريكية — عـلى الرغم من تسميتها باللاتينية ، وعلى الرغم من نسبة معظمها الى الاسبانية وبعضها الى البرتغالية — بعيدة جداً عن ان تكون حقيقة اسبانية ، او برتغالية ، او لاتينية .

٤

اعتقد ان التفاصيل المسرودة آنفاً – في هـذا البحث وفي البحث السابق – تظهر لنا بكل وضوح ، العوامـل التاريخية والجغرافية والاجتماعية الكثيرة التي سببت انفصال هذه الافكار الاميريكية عن اسبانيا والبرتغال ، كما تظهر العوامـل التي حالت دون اتحادها لتكوين دولة موحدة مثـل الولايات المتحدة الاميريكية .

كما انها لا تترك أدنى مجال للشك في أن هـذه الاحوال والأحداث الخاصة ، لا تدل مطلقاً على عدم تأثير اللغة في تكوين الدول والأمم ، فلا تبرر بوجه من الوجوه مزاعم الذين يستندون اليها لاستبعاد فكرة الاتحاد بين البلاد العربية .

أنا لا أرى لزوماً – بعد هـذه التفاصيل – لاطالة هـذا البحث بتعداد أوجه الخلاف بين أحوال اميريكا اللاتينية وبين خصائص البلاد العربية .

ومع هذا أود أن أسأل المعارضين – بهذه المناسبة – :

– لماذا يريدوننا ان نقتدي بدول اميريكا اللاتينية ولا يريدوننا أن نقتدي بالولايات المتحدة الاميريكية ؟

– لماذا يسعون وراء دروس الفرقة والاختلاف ، ويصمون آذانهم عن دروس الوحدة والاتحاد ؟

مثال بلجيكا

من المعلوم ان سكان بلجيكا يتألفون من طائفتين أساسيتين: الفالون والفلامان ، ويتكلم الفالون باللغة الفرنسية ، والفلامان بلغة قريبة من الهولندية .

فمن الطبيعي أن يخطر على البـــال – من الوهلة الاولى – هذا السؤال :

لماذا لم تنشطر بلجيكا الى شطرين ، فينضم الفالون الى فرنسا والفلامان الى هولندا ، وفقاً لعلائقهم اللغوية ؟

إذا بحثنا واستقصينا « أحداث التاريخ السياسي ، وحقائق الجغرافيا البشرية » في بلجيكا ، علمنا ان هناك نوعين من العوامل التي حالت – ولا تزال تحول – دون حـــدوث مثل هـــذا الانشطار والانضمام:

النوع الأول من هذه العوامل يتعلق بالأحوال الخارجية ،

والنوع الثاني يتصل بالأحوال الداخلية .

العوامل الخارجية ، هي : اتجاهات السياسة الدولية حول الشؤون البلجيكية .

وأما العوامل الداخلية ، فهي : تشابك اللغات وتداخلها في مختلف أنحاء بلجيكا .

١

من المعلوم ان أوروبا كانت مسرحاً لتنازع النفوذ والسيطرة بين فرنسا وانجلترة ، طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بوجه خاص .

كانت فرنسا أقوى دولة برية ، وانجلترة أقوى دولة بحرية . وكانت انجلترة تحسب ألف حساب لاحتمال قيام الفرنسيين بالغارة على بلادها ؛ ولذلك جعلت مبدأ « عدم إفساح المجال لتوسع سيطرة الفرنسيين على سواحل بحر المانش وبحر الشمال » أسّ الأساس في بناء سياستها الخارجية .

إن خطوط هذه السياسة كانت قد ارتسمت بكل وضوح منذ القرن الثامن عشر : لقد كتب سونلي في مذكراته ، ان ملك بريطانيا العظمى قال له يوماً « إذا حاول أخي ملك فرنسا الاستيلاء على بلجيكا ، فأنا لا أرضى بذلك ، فاضطر إلى معارضته بكل قواي ، وأظن انه هو أيضاً يفعل نفس الشيء ، اذا ما حاولت أنا الاستيلاء عليها . فمن الخير لنا أن نترك تلك البلاد على حالها ، فلا تكون لا لي أنا ولا لفرنسا » .

وهذه الخطة أصبحت بعد ذلك ، بمثابة الابرة الموجهة لسفينة السياسة البريطانية : تلك البلاد ، يجب أن تبقى تحت حكم دولة صغيرة . ولا بأس اذا دخلت تحت حكم اسبانيا ، أو تحت حكم النمسا . لان هاتين الدولتين منفصلتان عنها جغرافياً ، فحكم أحداهما عليها لا يكوّن خطراً على أمن الجزر البريطانية . واما اذا دخلت تحت سيطرة فرنسا ، فتتغير الاحوال تماماً . لان فرنسا متصلة بها جغرافياً ، وسيطرتها عليها تجعل جميع السواحل المواجهة لبريطانيا العظمى مسرحاً لنياتها العسكرية — ولذلك تضعف « المناعة الطبيعية » التي تحمي الجزر البريطانية من الاستيلاء ...

من المعلوم ان فرنسا استولت على بلجيكا خلال ثورتها العظمى وفي عهد امبراطورية نابوليون . ونابوليون كان استفاد من سواحلها لاحكام « الحصار البري » الذي أعلنه على انجلترة.

ولهذا السبب ، عندما قضت انجلترة — بمساعدة حليفاتها — على امبراطورية نابوليون ، أعادت بلجيكا الى وضعها السابق وفرضت عليها ان تكون دولة محايدة .

وعندما انفصلت بلجيكا عن هولندة — سنة ١٨٣٠ — أسرعت انجلترة الى الاعتراف بهذا الانفصال ، ثم اكدت مبدأ حيادها ، وجعلت هذا الحياد مضموناً بعهود دولية .

ومن المعلوم ايضاً، ان نابوليون الثالث كان ينوي الاستيلاء على بلجيكا . وحاول خلال مساوماته مع بسمارك ، ان يضمن موافقة بروسيا على ذلك .

وعندما انتشر خبر هذه المساومة ، هاجت انجلترة وماجت وأعلنت على لسان وزير خارجيتها ورئيس وزرائها ، انها تعارض احداث اي تغيير كان في الاوضاع القائمة على السواحل المواجهة لبريطانيا العظمى .

فقد صرح اللورد بالمرستون بان حكومتـــه تعارض نيات نابوليون بشدة ، وتدافع عن استقلال بلجيكا بقوة .

كما قال اللورد كورزون : ان مصلحة بريطانيا العظمى تقضي بان تبقى السواحل المذكورة – من دونكرك الى اوستاند – في ايدي دولة أو دول صغيرة ، فلا تنتقل الى حكم دولة قوية .

ومما لا شك فيه ان هذه القضية كانت من جملة العوامل التي جعلت انجلترة تنظر بنظر الارتياح الى انكسار الفرنسيين في حرب السبعين ، تحت هجمات البروسيين ...

يظهر من كل ذلك بكل وضوح وجلاء ؛ ان انجلترة بذلت جهوداً متوالية للحيلولة دون توسع السواحل الفرنسية ، بانضمام اي جزء من اجزاء بلجيكا اليها . وبقيت بلجيكا بمثابة « الدولة العازلة » état tampon بين فرنسا وبين انجلترة .

في الواقع ، ان التنازع البريطاني الفرنسي قد خف كثيراً منذ اوائل القرن الحاضر . الا انه ظهر في الميدان السياسي – بعد ذلك – تنازع جديد ، هو التنازع الفرنسي الالماني ، فلا حاجة الى القول ، بان هذا التنازع ايضاً عمل على ابقاء ما كان على ما كان ، في هذه المنطقة الحساسة من القارة الاوروبية .

٢

ان هذه السياسة الدولية – الناجمة عن الاوضاع الجغرافية – كانت تعمل على الدوام بجانب عوامل داخلية منبعثة من تشابك اللغات وتداخلها في مختلف انحاء المملكة البلجيكية –

فان الجماعات التي تتكلم الفرنسية والفلامندية ، تتداخل من مختلف القرى والمدن والنواحي ، تداخلاً لا يترك مجالاً لشطر البلاد حسب أوضاعها اللغوية . فان هناك مدناً فرنسية محاطة بقرى فلامندية ، وبعكس ذلك مدن فلامندية محاطة بقرى فرنسية . وهناك قرى ومدن كثيرة تجمع طوائف من اللغتين المذكورتين ، فضلاً عن اللغة الالمانية التي يتكلم بها أقلية من السكان ، في بعض المناطق المحدودة .

في الواقع ، لا يصعب رسم خط يفصل بين المنطقة التي اكثرية سكانها فلامندية اللغة ، والمنطقة التي اكثرية سكانها فرنسية اللغة . ولكن هذا التقسيم ، يكون تقسيماً مبنياً على الاكثرية النسبية ، فيترك في طرفي الخط كثيراً من المدن والقرى التي يتكلم سكانها اللغة الاخرى .

ولاظهار مدى هذا التشابك ، يجدر بنا ان نذكر بعض الأرقام الأحصائية :

لقد نشرت الحكومة البلجيكية – سنة ١٩٤٧ – احصائية تصنف السكان حسب اللغات التي يتكلمونها : أعداد الذين لا يعرفون غير الفرنسية ، والذين لا يعرفون غير الفلاماندية ،

والذين لا يعرفون غير الالمانية ، والذين يعرفون اللغتين ولكنهم يتكلمون بالفرنسية اكثر من الفلامندية ، أو - بعكس ذلك - يتكلمون بالفلاماندية اكثر من الفرنسية ، وذلك في كل ناحية ومدينة وقرية .

ان ارقام الاحصائية المذكورة تظهر وجه بلجيكا الحقيقي بكل وضوح ، وتبين مدى تشابك اللغات فيها بكل جلاء :

فان أيالة فلاندر الغربية - مثلاً - ، تعتبر من الأيالات الفلاماندية ، لأن اكثرية سكانها يتكلمون اللغة المذكورة : فان مجموع سكان هذه الايالة يقرب من مليون ، نحو ٦٩٣،٠٠٠ منهم لا يتكلم غير الفلاماندية ، ونحو ١٩٧،٠٠٠ منهم يتكلمون اللغتين الفلاماندية والفرنسية . والبقية لا تعرف غير الفرنسية .

ولكننا اذا بحثنا في تفاصيل الأمر ، وجدنا ان هذه الأيالة تضم كثيراً من المدن والقرى التي يتكلم اكثرية سكانها باللغة الفرنسية .

مثلا : مدينة Dattiynies يبلغ مجموع سكانها ٥٩٣٥ وبين هؤلاء ٥٦ في المائة لا يعرف غير اللغة الفرنسية ، و ٣٥ في المائة يعرف اللغتين . وبين الصنف المذكور ، نحو ٨٠ في المائة يتكلم بالفرنسية اكثر من الفلاماندية ، و ٢٠ في المائة فقط يتكلم بالفلاماندية أكثر من الفرنسية .

ان تشابك اللغات واختلاطها ، يظهر حتى في بعض القرى الصغيرة التي يقل سكانها عن الالف :

مثلاً : قرية Espierre مجموع سكانها ٩٠٠ ، وبين هؤلاء ٢٠ في المائة من لا يعرف غير الفرنسية ،و٦٣ في المائة من يتكلم اللغتين. وبين الذين يتكلمون اللغتين ٦٠ في المائة يتكلمون بالفرنسية أكثر من الفلاماندية ، و٤٠ في المائة يتكلمون بالفلاماندية اكثر من الفرنسية .

ومما يلفت النظر ان عاصمة بلجيكا – مدينة بروكسل نفسها – تعطي مثالاً بارزاً لتشابك اللغات . فاننا نفهم من احصائية منشورة قبل الحرب العالمية الاولى ؛ ان ٢٨ في المائة من سكان المدينة المذكورة كان لا يعرف غير الفرنسية ، و١٧ في المائة منهم لا يعرف غير الفلاماندية ، و٢٥ في المائة منهم يعرف اللغتين ولكنه يتكلم بالفرنسية أكثر من الفلاماندية ، و٣٠ في المائة منهم يعرف اللغتين ولكنه يتكلم بالفلاماندية اكثر من الفرنسية.

٣

أعتقد أن الحقائق التي سردناها آنفاً لا تترك مجالاً للشك في ان هذه العوامل الداخلية والخارجية – أي : الاوضاع الناجمة عن تنازع الدول من ناحية وتشابك اللغات من ناحية – ، هي التي تضافرت على ابقاء بلجيكا على حالتها الحاضرة ، وجعلت سكانها يشعرون بوجود التعايش تحت راية واحدة ، كما حملت حكومتها على اعتبار اللغتين رسميتين في وقت واحد ، وعلى السعي وراء ضمان العدل والتوازن بين الجماعتين اللغويتين .

ولا أراني في حاجة الى القول – بعد هذه التفاصيل – ان

أحوال البلاد العربية، لا تشبه أوضاع المملكة البلجيكية بوجه من الوجوه . والحجة التي يحاول استخلاصها معارضو الوحدة العربية عن أوضاع المملكة المذكورة ، انما هي حجة واهية بكل معنى الكلمة .

obeikandl.com

مثال سويسرة

١

أن ما قلناه آنفـــاً عن بلجيكا ينطبق على سويسرة بمقياس أوسع . ذلك لانه تتلاقى وتتداخل فيها ثلاث لغـات كبيرة ، وتحيط بها وتتنافس حولها أربع دول عظمى .

دولة اتحـادية صغيرة . لا تزيد مساحتها على ربـع مساحة الجمهورية السورية ، يقدر تعداد سكانها بنحو خمسة ملايين . الا ان ٧٤ في المـائة منهم يتـكلم الالمانيـة ، و٢١ في المائة يتـكلم الفرنسية ، و٤ في المائة يتـكلم الايطالية و١ في المائة منهم يتـكلم لغة محلية ، تسمى « الرومانس » وتقترب من اللاتينية القديمة .

لم تتفكك أوصال هذه الدولة الاتحادية الصغيرة ، كما تفككت أوصال الامبراطورية النمساوية والسلطنة العثمانيـة ، وذلك على الرغم من تعـدد لغاتها وتنوع قومياتهـا ، وعلى الرغم من شدة

تيارات القومية التي عصفت بمعظم البلاد المجاورة لهـا ، وغيرت خرائطها السياسية تغييراً كلياً .

لماذا ؟

لأن سلسلة طويلة من العوامل والظروف الداخلية والخارجية – الجغرافية والتاريخية والسياسية والاجتماعية – تضافرت على ابقائها على حالها .

فان خصائص جغرافيتها الطبيعية والبشرية جعلت من المتعذر تقسيمها ، تقسيما يتلاءم مع لغات سكانهـــا ولا يثير الخصام بين الدول الكبيرة المحيطة بها . فاتفقت كلمة الدول المذكورة ورجال سياستها ، على ان بقاء سويسرة على حالتها الخـــاصة ، كدولة عازلة محايدة ، أوفق لمصالح هذه الدول ، فلم تقـــدم دولة من الدول المذكورة على الاستيلاء عليهـــا ولا طالبت بتقسيمها بين جيرانها .

وقد نشأ في سويسرة – بتأثير هـــذه الأحوال الخاصة – نوع خاص من نظام الحكم هيأ لهـــا سبل البقاء ، على الرغم من اختلاف لغات سكانها ، لان هذا النظام جمع بين فدرالية ممعنة في المرونة ، ولا مركزية ادارية واسعة النطاق ، وديموقراطيـــة تذهب الى أقصى حدود الشعبية . فلا تترك مجالاً لتغلب فئة على اخرى ، وتيسر للجميع وسائل التعايش الحر ، دون أن تضطر فئة من الفئات الى تضحية شيء من خصائصها ...

وكل ذلك أوجد في سويسرة اوضاعاً شاذة ، لا تشبـه اي وضع من الاوضاع القائمة في اية بقعة من بقاع العالم .

ان التفاصيل المختصرة التالية توضح هذه الاوضاع ، وتظهر هذه الخصائص الى العيان .

٢

من المعلوم ان سويسرة بلاد جبلية ، تضم أهم مسالك الالب وقسماً غير قليل من جبل الجورا ، والهضبة التي تقع بينهما .

تنبع منها اربعة انهر ، تجري مياه كل واحد منها في اتجاه يختلف عن اتجاه غيرها نحو الشرق والغرب والجنوب ، نهر الراين الذي يقطع المانيا ويصب في بحر الشمال ، ونهر الرون ، الذي يقطع فرنسا ويصب في البحر الأبيض المتوسط ، ونهر تسين الذي يعتبر من أهم روافد نهر بو ، الذي يقطع شمال ايطاليا ويصب في بحر الادرياتيك .

ان منابع هذه الأنهر الثلاثة ـ التي تجري في هذه الاتجاهات المختلفة وتقطع هذه المسافات الطويلة خارج سويسرة ، في بلاد المانية وفرنسية وايطالية ـ تقع كلها في منطقة صغيرة من جبال سان غوتا ـ : فان المسافة التي تفصل هذه المنابع الثلاثة بعضها عن بعض لا تتجاوز العشر كيلو مترات .

ان اوضاع هذه الانهر واتجاهاتها تبين لنا بوضوح اتجاهات الجبال السويسرية ، وتؤيد أقوال الجغرافيين الذين يعتبرون سويسرة بمثابة « سُرّة التضاريس الاوروبية » ، كما انها توضح لنا لماذا صارت سويسرة ملتقىً لثلاث لغات عظيمة ـ هي التي تمثل اهم الثقافات الاوروبية .

ولا نعدو الحقيقة اذا قلنا ان هذه اللغات الثلاث تتلاقى في البلاد السويسرية ، كما تتقارب فيها منابع الانهر المذكورة

٣

ومما تجب ملاحظته ، ان الجبال في سويسرة كثيرة الفروع ومعقدة الشعاب ، يقطع سفوحها المتشابكة كثير من الوديان العميقة ، التي تحتضن عدداً كبيراً جداً من البحيرات الكبيرة والصغيرة .

ولا حاجة الى القول بان كثرة البحيرات تدل على كثرة المناطق الـ « شبه مقفلة » التي لا يتصل بعضها ببعض ، الا بضايق عالية ووعرة .

ولهذا السبب ، انقسم سكان هذه الجبال الى جماعات صغيرة تعيش كل واحدة منها في منطقة خاصة بها ، شبه منطوية على نفسها ، ومستقلة عن غيرها .

وعندما شعرت هذه الجماعات بضرورة التآزر والتكتل للمحافظة على استقلالها ، سلكت سبيل التحالف الحر ، المبني على الاحترام المتبادل الخالي من كل انواع النزوع الى التسيطر .

ولا حاجة الى القول ، ان سياسة الحياد — التي سارت عليها سويسرة ، والتي ضمنتها لها المواثيق الدولية ، والتي لم تقدم على الاخلال بها اية دولة من الدول المجاورة لها ، منذ مدة طويلة — ساعدت على نشوء نظام الحكم في سويسرة نشوءاً سوياً ، دون ان يتعرض الى تعقيدات واختلاطات ناجمة عن التأثيرات

الخارجية .

فقد تكوّنت في سويسرة ، بنتيجة التطورات التاريخية ، دولة اتحادية ، تتألف من ٢٥ مقاطعة تعرف باسم الـ « كنطون » Canton .

يتولى الاتحاد السويسري شؤون السياسة الخارجية والدفاع الوطني وبعض الشؤون المتعلقة بالمواصلات ، ويترك لكل « كنطون » الحرية التامة في تصريف شؤونه العامة كما يشاء .

فأصبح لكل كنطون من الكنطونات السويسرية دستور (قانون أساسي) — خاص به ، اختاره هو لنفسه ، كما أصبح لكل كنطون قوانين وأنظمة خاصة قررها مجلسه التمثيلي وفقاً لأحكام دستوره ، أو ارتضاها الشعب مباشرة عن طريق تصويت عام اشترك فيه جميع السكان .

فضلاً عن ذلك كله ، فان ادارة الكنطونات نفسها تسير على خطة « اللامركزية الواسعة النطاق » ، فلا تتدخل في شؤون الـ « كومونات » (النواحي) فكل ناحية من النواحي التي تؤلف الكنطون تتمتع بسلطات واسعة جداً ، في تصريف الامور ، وفرض الضرائب وتقرير الانظمة ، وانتخاب وتعيين الموظفين والمستخدمين .

فلا نغالي اذا قلنا :

ان كل كومون ، ... أي كل ناحية — في سويسرة بمثابة وحدة حكومية ، تكاد تكون تامة . فانها لا تراجع ادارة الكنطون ، الا في الامور المحدودة التي تتصل بمصالح سائر

النواحي بأجمعها .

وكل كنطون – أي : كل مقاطعة – يشبه حكومة قائمة بنفسها . فان ادارتها لا تراجع مجلس الاتحاد ، الا في الامور التي تتصل بالعلاقات الخارجية وبالدفاع الوطني .

ولا حاجة الى القول : ان هذه الامور في سويسرة أصبحت محدودة وبسيطة ، بسبب سياسة « الحياد الدائم » التي ألفتها هي كل الالفة واحترمتها الدول المجاورة لها تمام الاحترام .

ان هذا النظام الذي تقرر في سويسرة ، بتأثير العوامل الكثيرة التي ذكرتها آنفاً ، هو الذي ضمن البقاء لهذه الدولة الاتحادية الصغيرة ، وحال دون تفككك أوصالها على الرغم من تعدد عناصرها .

خاتمة

أعتقد ان الحقائق التي سردتها آنفاً عن اميريكا وبلجيكا وسويسرة لا تترك مجالاً للشك في ان الذين يستشهدون بأحوال تلك البلاد ، لاستصغار شأن اللغة في تكوين الامم والدول ، وبالتالي لانكار وحدة الامة العربية ... — يضلون سواء السبيل فيخطئون خطأً عظيماً .

فاننا نستطيع ان نؤكد — بعد هذه التفاصيل — ان اللغة لم تفقد تأثيرها في تلك البلاد ، وان ظهرت احوالها ، في الوهلة الاولى مخالفة لقانون « جاذبية اللغة » ، كما تظهر بعض الحوادث الطبيعية مخالفة لقانون « جاذبية الارض »

ولزيادة التأكيد على هذه الحقيقة ، نستطيع ان نضيف الى كل ما سبق ، اموراً اخرى ، فنقول :

ان من يدرس تاريخ بلجيكا بشيء من التفصيل ، يرى ان

« مشكلة اللغات » لعبت دوراً هاماً جداً في سياستها الداخلية ، ولم تخل من التأثير في امورها الخارجيـــة ايضاً في بعض الاحوال .

ومن يتتبع تاريخ سويسرة القريب ، يرى ان حيادهـــا السياسي الرسمي ، لم يحل دون ظهور اختلاف كبير بين ميول سكان مقاطعاتها الفرنسية ومقاطعاتها الالمانية خـلال الازمات العالمية ...

ومن يستقص الدول الاميريكية الداخلية ، يلاحظ الاهتمام البالغ الذي تبديه جميعها بقضية « أمركة المهاجرين » .

ولكني لا أرى لزوماً لاطالة هذا البحث بشرح هـــذه الامور .

لاني اعتقد ان التفاصيل التي سردتها عن خصـــائص كل واحدة من الدول المذكورة ـ وعن العوامل المؤثرة فيهـا ـ تكفي لتفنيد الحجج التي يحاول استخلاصها معارضو الوحدة العربية من أحوال تلك البلاد .

انتهى

فهرست

مقدمة ٥

١ . القومية الاعتباطية ، التي دعا لها انطون سعادة والتي يعمل لها مويدوه الحاليون

١ – في حفلة مدرسية . . . ١٥
٢ – نظرات الى دستور الحزب واساليبه ٢٣
٣ – حول النقاش السابق . . . ٣٠
٤ – حول حدود سوريا الطبيعية . . ٤١
٥ – تأثير البيئة الطبيعية في الاحوال البشرية ٥٢

٢ . نظرات الى تاريخ الامة العربية

١ – العرب وغريزة الاحساس بالمستقبل ٧٠

obeikandl.com

٢ ــ حول ماضي العرب . . . ٩٣
٣ ــ حول مقال العرب في سويسرة . ١٠٦

٣ . العالم العربي والشرق الاوسط

١ ــ الشرق والشرقيون . . . ١٢٠
٢ ــ الشرق الادنى والشرق الاوسط . ١٣١

٤ . وحدة اللغة ووحدة القومية
مناقشة الاعتراضات

١ ــ مثال الولايات المتحدة الاميركية . ١٥١
٢ ــ مثال اميركا اللاتينية . . . ١٦٦
٣ ــ مثال بلجيكا ١٧٤
٤ ــ مثال سويسرة ١٨٢

خاتمة ١٨٨